الأمجد العثماني

حكايات وقصص منسيّة من فرنسا

مجموعة قصصية

حكايات وقصص منسية من فرنسا

الأمجد العثماني

الكتـــــــــاب: حكايات وقصص منسية من فرنسا

جمع وترجمـــــــة: الأمجد العثماني

النوعيـــــــــة: مجموعة قصص

صدر عن كتوباتـي: 2024م

التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

صمود فتاة شابة... 6
أميرة مونبنسييه... 19
لورييت أو الطابع الأحمر... 62
قصة الختم الأحمر... 71
كيف أواصل طريقي... 99
الخوف... 109
الشيطان جامع الخرق... 120
حلم الجحيم... 132
منتصف الصوم الكبير... 182
الفاصوليا... 187
أغلقت بسبب الموت... 195
الفصل الأخير... 203
جريمة الأب « بونيفاس»... 213

تضم هذه المختارات مؤلفين معروفين وآخرين غير معروفين أو منسيين، أو نصوص منسية لكتاب معروفين.

Marguerite de Navarre

(1492-1549)

مارغريت دي نافار

صمود فتاة شابة

في وجه الملاحقة الغرامية العنيدة لأحد أسياد فرنسا الكبار، والنجاح السعيد الذي حققته الشابة معه

كان يعيش في إحدى أفضل مدن تورين أمير من بيت عظيم حسن، كان قد تربى فيها منذ صباه. ولن أذكر من كمالات هذا الأمير الشاب ونعمته وجماله وعظيم فضائله إلا أنه لم يكن في عصره مثله. وكان في سن الخامسة عشرة من عمره، يستمتع بالركض والصيد أكثر من استمتاعه بالنظر إلى السيدات الجميلات. وذات يوم، وهو في الكنيسة، نظر إلى فتاة صغيرة كانت قد تربت في طفولتها في القلعة التي كان يعيش فيها؛ وبعد وفاة أمها انسحب أبوها فاعتزلت مع أخيها إلى بواتو. وكان لهذه الفتاة، واسمها فرانسواز، أخت غير شرعية، أحبها أبوها حباً جماً فزوجها من أحد سقاة الخمر لهذا الأمير الشاب، وكانت جزءاً من الأسرة كغيرها من أفرادها.

وتوفي الأب وترك لفرانسواز ما كان يملكه بالقرب من هذه البلدة الطيبة، وترك لها نصيبها من هذه البلدة أيضا. ولهذا انسحبت بعد موته إلى حيث كانت أملاكها؛ ولأنها كانت على وشك الزواج ولم تكن قد بلغت السادسة

عشرة من عمرها، لم تشأ أن تعيش وحدها في بيتها، بل ذهبت لتقيم مع أختها نادلة الخمر. ونظر إليها الأمير الشاب طويلاً وهو يرى هذه الفتاة جميلة جداً، سمراء حسناء، وذات جمال يفوق جمالها (لأنها بدت له امرأة نبيلة وأميرة أكثر من كونها برجوازية)، وشعر وهو الذي لم يحب من قبل بسرور لم يعهده، وعندما عاد إلى غرفته سأل عن المرأة التي رآها في الكنيسة، وعرف أنها كانت في شبابه قد ذهبت مرة إلى القلعة لتلعب بالدمى مع أخته التي قدمها لها. فأرسلت أخته في طلبها وأحسنت معاملتها، وطلبت منها أن تأتي لزيارتها كثيراً، وكانت تفعل ذلك في بعض الأعراس أو الاجتماعات، حيث كان الأمير الشاب يراها برغبة شديدة حتى أنه كان يظن أنه يحبها حباً جمّاً، ولأنه كان يعرفها من مكان وضيع وفقير، فقد كان يأمل أن يسترد ما يطلبه منها بسهولة؛ ولكن، ولأنه لم يكن لديه وسيلة للتحدث إليها، فقد أرسل إليها رجلاً من غرفته ليقوم بمحادثتها في الأمر، فقالت له - وكانت عاقلة حكيمة تتقي الله - إنها لا تصدق أن سيدها الذي كان أميراً وسيماً أميناً يتسلى بالنظر إلى شيء في مثل خشونتها، إذ كان في القلعة التي كان يسكنها من الجمال ما لا حاجة معه إلى البحث عن غيرها في المدينة، وأنها تظن أنه يقول ذلك من تلقاء نفسه دون أمر سيده. فلما سمع الأمير الشاب

هذا الجواب، كان الحب الذي يتشبث به أقوى ما يكون حيث وأنها ظنت أنه يقول ذلك من تلقاء نفسه دون أمر سيده. فلما سمع الأمير الشاب هذا الرد، حمله حبه الذي يزداد قوة كلما وجد مقاومة أكبر، على أن يتابع مشروعه بحماس أكثر مما كان يفعل من قبل، وكتب لها رسالة يطلب منها أن تصدق تماماً ما سيقوله لها السيد. وكانت هي التي تعرف القراءة والكتابة جيداً، وقرأت رسالته مطولاً، ومهما توسل إليها الرجل النبيل لم تشأ أن ترد عليه قائلة إنه لا يليق بمن هذه منزلته الوضيعة أن يكتب إلى مثل هذا الأمير: ولكنها توسلت إليه أن يظنها حمقاء إلى هذا الحد من الحماقة حتى تظن أنه كان له مثل هذا الرأي فيها، وأن يظهر لها كل هذا القدر من الصداقة، وأنه إذا كان يظن أيضاً بسبب سوء حالها أنه يستطيع أن ينالها كما يشاء فقد أخطأ، لأنها لم تكن أقل أمانة في قلبها من أعظم أميرة في العالم، ولم تكن تقدر أي كنز في العالم فوق الشرف والضمير، وتوسلت إليه أن لا يمنعها من الاحتفاظ بهذا الكنز بقية حياتها، لأنها لن تغير رأيها أبداً إذا ماتت. ولم يجد الأمير الشاب في هذا الجواب ما يعجبه؛ غير أنه كان يحبها حباً جماً، ولم يقصر في أن يجعلها تجلس حيث تذهب إلى القداس، وكان دائماً يوجه عينيها أثناء القداس إلى هذه الصورة، ولكنها لما رأته غيرت مكانها وذهبت إلى

مصلى آخر، لا لتتجنب رؤيته (لأنها لم تكن مخلوقة عاقلة لو لم تكن تتلذذ بالنظر إليه)، ولكنها خشيت أن يراها هو، ولم تكن ترى نفسها أهلاً لأن يحبها من جهة الشرف أو الزواج، ولم تكن تريد من جهة أخرى أن يكون ذلك عن طريق الحماقة واللذة. وعندما رأت مكاناً في الكنيسة تستطيع أن تجلس فيه، وكان الأمير يقيم القداس في مكان قريب، لم تعد تريد الذهاب إلى تلك الكنيسة، بل كانت تذهب كل يوم إلى أبعد مكان تستطيع الذهاب إليه. وعندما كانت تقام بعض الأعراس في القلعة، لم تعد ترغب في التواجد هناك (رغم أن أخت الأمير كانت ترسل في طلبها في كثير من الأحيان)، معتذرةً ببعض الأمراض. فلما رأى الأمير أنه لا يستطيع أن يكلمها، استعان بنادل النبيذ ووعده بغنى عظيم إذا ساعده في هذا الأمر. فوافق نادل النبيذ بسرور إرضاءً لسيده وللفائدة التي كان يتوقعها، وكان كل يوم يخبر الأمير بما تقوله وتفعله، ولكن فوق كل ذلك كانت رغبته في التحدث إليها في سهولة ويسر شديدين، فبحث عن حيلة: فذهب ذات يوم ليقود جواده الكبير (الذي كان قد بدأ يعرفه جيداً) إلى ساحة كبيرة في البلدة، أمام منزل الساقي حيث كانت تقيم فرانسواز، وبعد أن قام بقفزات كثيرة وجولات كانت تراها بوضوح، سقط من على جواده في مستنقع عظيم، بلطف شديد، فلم يصبه أي أذى، على

الرغم من أنه كان يشكو بما فيه الكفاية، وسأل عما إذا كان هناك مكان يستطيع أن يذهب إليه ليغير ملابسه. فعرض كل منهم منزله، ولكن أحدهم قال إن منزل الساقي كان أقربها وأصدقها، فاختاره على سائر الأماكن. فوجد الغرفة حسنة الملبس وتجرد من ثيابه حتى قميصه، لأن كل ثيابه كانت ملوثة بالقذارة، ودخل إلى سرير. ولما رأى أن الجميع قد انصرفوا لجلب ثيابهم ما عدا السيد، نادى مضيفه ومضيفته وسألهم عن مكان فرانسواز. وواجهوا صعوبة كبيرة في العثور عليها، لأنها ما إن رأت هذا الأمير الشاب يدخل منزلها حتى ذهبت لتختبئ في أكثر أجزاء المنزل سرية؛ ولكن أختها وجدتها فسألتها ألا تخشى أن تأتي لتكلمي هذا الأمير الصادق الفاضل. قالت فرانسواز: (كيف يا أختي تنصحينني أن أذهب وأتحدث إلى سيد شاب تعلمين أنني لا أستطيع تجاهل إرادته؟ ولكن الأخت أعطتها الكثير من التحذيرات والوعود بألا تتركها وحدها، فذهبت معها وقد بدا وجهها شاحباً أشعث مصفراً حتى أنه يثير الشفقة أكثر مما يجب. ولما رآها الأمير الشاب عند سريره، أخذ بيدها التي كانت باردة مرتعشة، وقال لها: فرانسواز، أتحسبينني رجلاً سيئاً وغريباً وقاسياً إلى هذا الحد، حتى إني آكل النساء بالنظر إليهن؟ لماذا تخافين من شخص لا يسعى إلا إلى شرفك ومصلحتك؟

أنت تعلمين أنني حيثما استطعت أن أراك وأكلمك حاولت أن أراك وأكلمك فلم أقدر على ذلك، ولكي أزيد في انزعاجي فقد هربت من الأماكن التي اعتدت أن أراك فيها في القداس حتى لا يكون لي من النظر أكثر مما كان لي من الكلام; ولكن هذا كله لم يفدك في شيء؛ لأني لم أتوقف حتى جئت إلى هنا بالوسيلة التي رأيتها، وخاطرت بكسر عنقي متبرعاً بأن أترك نفسي طوعاً لأحظى بلذة الحديث معك في راحتي. لهذا السبب أتوسل إليك يا فرانسواز، بما أنني حصلت على هذا الفراغ هنا، بهذا الجهد العظيم، أن لا يكون عديم الفائدة بالنسبة لي، وأن أفوز بحبك العظيم". ولما طال انتظاره لجوابها ورآها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، نظر إلى الأرض، جذبها إليه بأقصى ما يستطيع وأراد أن يقبلها؛ ولكنها قالت له: "لا يا سيدي، لا! إن ما تبحث عنه لا يمكن أن يتم؛ لأني و إن كنت دودة بالنسبة لك، فإن شرفي عزيز عليَّ إلى درجة أني أفضل الموت على أن أنقصه مهما كان في الدنيا من متعة؛ و إن خوفي من أن يشك من رآك وأنت قادم إلى هنا في هذه الحقيقة هو الذي يبعث في نفسي الخوف والرعدة؛ وبما أنك تشرفني بالتحدث إليَّ، فإنك ستعذرني أيضاً إذا أجبتك بما يأمرني به شرفي. لست من الغباوة يا مولاي ولا من العمى بحيث لا أرى وأعرف جيداً ما أودع الله فيك من جمال

ونعمة، وأعتقد أنها أسعد امرأة في العالم تملك جسد مثل هذا الأمير وحبه. ولكن ما فائدة ذلك بالنسبة لي، مع أنه ليس لي ولا لامرأة من نوعي، وأن هذه الرغبة وحدها ستكون حماقة مطلقة بالنسبة لي؟ وما السبب في ظني الذي يجعلك تلتفت إليّ إلا أن سيدات بيتك (اللاتي تحبهن إن كان الجمال والرشاقة محبوبين عندك) من الفضيلة بحيث لا تجرؤ على طلبهن ولا ترجو أن تنال منهن ما يجعلك صغر حالي ترجو أن تنال مني؟ وأنا على يقين من أنه لو كان لدى أمثالي ما تطلبه لكان ذلك وسيلة لتسلية عشيقتك ساعتين أطول من ساعتين بإخبارها عن انتصاراتك على حساب أضعفها؛ ولكنك ستسرني يا سيدي أن تعلم يا سيدي أنني لست من هذه الحالة: لقد نشأت في بيت تعلمت فيه معنى الحب؛ وكان أبي وأمي من خدامك الصالحين. لهذا، وبما أن الله لم يجعلني أميرة لكي أتزوجك، ولم يجعلني امرأة لكي تكون لك عشيقة وصديقة، فسيسعدك ألا تضعني بين المساكين التعساء، فأنا أقدرك وأتمنى أن تكون من أسعد الأمراء في العالم المسيحي. و إذا كنت تريد لهواك، نساء في مثل مكانتي، فستجد في هذه المدينة من هن أجمل مني بلا مقارنة، ولن تكلفك عناء التوسل إليهن كثيراً. فتمسك بمن ترضيهن بشراء شرفهن، وكف عن العمل على من هي أحب إليك من نفسها؛ لأنه لو

كان لا بد من طلب حياتك أو حياتي من الله اليوم لسرني أن أقدم حياتي لإنقاذ حياتك. لَيْسَ هَرَبِي مِنْكَ لِعَدَمِ الْمَحَبَّةِ، بَلْ لأَنَّ فِي ضَمِيرِي وَضَمِيرِكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ حُبِّكَ، فَإِنَّ عِرْضِي أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي. سأبقى، إذا سمحت يا سيدي، في رحابك، وسأظل، إن سمحت، في خدمتك وأدعو الله طوال حياتي أن يديم عليك الرخاء والصحة. والحق أن هذا الشرف الذي تكرمني به سيجعلني أكثر احتراماً بين الناس من أمثالي؛ إذ من هو الرجل (بعد رؤيتك) الذي أتشرف بأن أقتدي به؟ وبهذه الطريقة سيبقى قلبي حراً طليقاً، ما عدا التزامي بأن أدعو الله لك إلى الأبد؛ لأني لا أستطيع أن أقدم لك أي خدمة أخرى. "فلما رأى الأمير الشاب هذه الإجابة الصادقة - مع أنها لم تكن كما كان يتمنى - لم يستطع أن يقل في نظره عنها. وبذل كل ما في وسعه ليجعلها تعتقد أنه لن يحب امرأة سواها؛ ولكنها كانت من الحكمة بحيث لا يمكن أن يخطر ببالها مثل هذا الأمر غير المعقول. وفي أثناء هذه الأحاديث كان الأمير الشاب، على الرغم من أنه كان يقال في كثير من الأحيان أن ثيابه قد جاءت من القلعة، كان مسروراً جداً ومرتاحاً لدرجة أنه كان يقول إنه كان نائماً حتى وقت العشاء، عندما لم يجرؤ على أن يخذل أمه التي كانت من أعقل سيدات العالم. فغادر الأمير الشاب منزل ساقيه، وكان يقدّر أمانة هذه الفتاة أكثر من

أي وقت مضى. وكثيراً ما تحدث عنها إلى الرجل النبيل الذي كان ينام في غرفته، والذي كان يعتقد أن المال سيفعل أكثر مما يفعل الحب، فنصحه بأن يعرض على هذه الفتاة مبلغاً معقولاً لترضخ لرغباته. ولم يكن لدى الأمير الشاب، الذي كانت أمه أمينة الصندوق، سوى هذا المال القليل لكل ملذاته الصغيرة، وكان يأخذ منه كل ما يستطيع اقتراضه. ولكنها لما رأت الهدية قالت للرجل المحترم: (أرجوك أن تخبر السيد أن قلبي طيب وصادق إلى درجة أنني لو اضطررت إلى طاعة ما يأمرني به لكان الجمال والرشاقة اللذان فيه قد استمالاني بالفعل، ولكن حيث لا سلطان لهم على شرفي، فإن كل ما في الدنيا من مال لن يجدي نفعاً، وهو ما ستعطيها إياه؛ لأني أفضل الفقر الصادق على كل ما يتمناه المرء من متاع. فلما رأى الرجل هذه الوقاحة من السيدة رأى من الضروري أن يكون قاسياً، وهددها بسلطان سيده وقوته. ولكنها ضحكت وقالت له: (اجعل من لا يعرفه يخشى منه، لأني أعلم أنه من الحكمة والفضيلة بحيث لا يصدر منه مثل هذا الكلام، وأنا واثقة أنه سيتبرأ منك حين تقول له هذا الكلام. ولكن، إن كان كما تقول، فليس هناك من عذاب أو موت يمكن أن يجعلني أغير رأيي؛ لأنه كما قلت لك، بما أن الحب لم يقلب قلبي، فإن كل ما يمكن أن يقدِّم لأحد من شر أو خير لا يمكن أن

يحولني خطوة واحدة عن موقفي هذا". فأجابه هذا الرجل الذي كان قد وعد سيده أن يظفر بها من أجله بهذا الرد بحقد عجيب، وأقنعه بأن يسعى وراءها بكل الوسائل الممكنة، وأخبره أنه ليس من شرفه ألا يظفر بمثل فتاة السادسة عشرة هذه. ثم إن الأمير الشاب، الذي لم يشأ أن يستخدم أية وسيلة أخرى غير تلك التي تمليها عليه الأمانة، وخشي أيضاً أن ينتشر خبر ذلك وتعلم به أمه فتغضب غضباً شديداً، لم يجرؤ على فعل أي شيء حتى أعطاه هذا الرجل المحترم مخرجاً سهلاً ظن أنه قد ظفر بها بالفعل، ولكي ينفذ ذلك كان يتحدث إلى ساقي النبيذ. وكان الساقي مصمماً على خدمة سيده بأي طريقة كانت، فطلب ذات يوم من زوجته وزوجة أخيه أن يذهبا إلى منزل له بالقرب من الغابة ليزور محصول العنب في بيت له بالقرب من الغابة، ووعداه بذلك. فلما جاء اليوم أخبر الأمير الشاب، فقرر أن يذهب وحده مع السيد، وأمر أن تبقى بغلته سراً حتى يتمكن من الرحيل عندما يحين الوقت. ولكن شاءت إرادة الله أن تصادف أمه في ذلك اليوم خزانة هي أجمل ما في الدنيا من الخزانات، وكان معها جميع أولادها لتعينها على ذلك؛ وهناك تسلّى الأمير الشاب حتى انقضت الساعة الموعودة. ولم يكد يفي بوعده لساقيه، حتى جاء بأخته إلى

منزله في ردفه، وجعل زوجته تمرضها، ولما رأى أن الوقت قد تأخر عن موعد قدوم الأمير، قال لزوجة أخيه: "أعتقد أنه يمكننا العودة إلى المدينة".

- فأجابت فرانسواز: "من الذي يؤخرك؟

قال الساقي: ــ (لقد كنت في انتظار السيد الذي وعدني بالمجيء إلى هنا). فلما سمعت أختها بهذا الشر، قالت له: (لا تنتظره أكثر من ذلك يا أخي لأني أعلم أنه لن يأتي اليوم). فصدقها الأخ وأعادها. ولما كانت في بيته أظهرت غضبها الشديد، وأخبرت زوج أختها أنه خادم الشيطان، وأنه يفعل أكثر مما قيل له؛ لأنها كانت على يقين من أن ذلك من اختراعه هو والسيد النبيل، لا من اختراع الأمير الشاب الذي كان يحب أن يكسب المال بإراحته في حماقاته أكثر من أن يكون خادماً صالحاً؛ ولكنها لما عرفت أنه كذلك لم تعد تقيم في بيته. فَأَرْسَلَتْ فِي طَلَبِ أَخِيهَا لِيَأْخُذَهُ إِلَى بَلَدِهِ وَتَرَكَتْ أُخْتَهُ عَلَى الْفَوْرِ. وبعد أن فشل الساقي في مهمته، ذهب إلى القلعة ليعرف سبب عدم مجيء الأمير الشاب، ولم يكد يصل إليه حتى وجده على بغلته وحيداً مع رجل يثق به، فسأله: (هل ما زالت هناك؟ فأخبره بكل ما فعله بها. فتأسف الأمير الشاب أسفاً شديداً لفشله في مداولته التي اعتبرها آخر وأقصى ما يمكن أن يتخذه من إجراءات. ثم رأى أنه لم يعد هناك من علاج، فبحث عنها

حتى وجدها في صحبة لا تستطيع الفرار منها، وغضب عليها غضباً شديداً لما كانت تبديه له من قسوة، ولما كانت تريد أن تترك صحبة أخيها.. ثم رأى أنه لم يعد هناك من علاج، فبحث عنها كثيراً حتى وجدها في صحبة لا تستطيع الفرار منها، وغضب عليها غضباً شديداً لما كانت تظهره من قسوة في معاملتها، ولرغبتها في ترك صحبة أخيها. فأخبرته أنها لم تجد من هو أشد خطراً عليها، وأنه كان شديد الحب لساقيه، لأنه لم يكن يخدمه بجسمه وممتلكاته فحسب، بل بروحه وضميره أيضاً. ولما أدرك الأمير أنه لم يكن هناك علاج آخر قرر ألا يضغط عليه أكثر من ذلك، وكان يحترمه كل الاحترام طوال حياته. ولما رأى أحد خدم الأمير المذكور أمانة هذه الفتاة أراد أن يتزوجها، ولم يكن راغباً في ذلك إلا بأمر الأمير الشاب الذي كانت قد وضعت كل مودتها في عنقه. وقد أفهمته ذلك، وبفضل حسن نيته تم الزواج، وعاشت الفتاة طوال حياتها في سمعة حسنة. وأحسنت إلى الأمير الشاب إحساناً عظيماً.

Madame de La Fayette

(1634-1693)

مدام دي لا فاييت

أميرة مونبنسييه

بينما كانت الحرب الأهلية تمزق فرنسا في عهد شارل التاسع لم يفشل الحب في أن يجد مكانه بين كثير من الاضطرابات وأن يتسبب في كثير منها في إمبراطوريته. وكانت الابنة الوحيدة للماركيز دي ميزيير، وهي وريثة كبيرة جداً بسبب ثروتها الكبيرة وبسبب بيت أنجو الشهير الذي تنحدر منه، قد وُعدت بالدوق دو مين، الابن الأصغر للدوق دي غيز، الذي عرف منذ ذلك الحين باسم الدوق ذي الندبة. وقد أخر صغر سن هذه الوريثة العظيمة زواجها؛ ومع ذلك فإن الدوق دي غيز الذي رآها كثيراً، ورأى فيها بدايات جمال عظيم، قد افتتن بها ووقع في غرامها. لقد أخفيا حبهما بعناية فائقة. وكان الدوق دي غيز، الذي لم يكن قد بلغ من الطموح ما بلغه بعد ذلك، يتمنى أن يتزوجها بحماس، ولكن الخوف من الكاردينال لورين، الذي حل محل أبيه، منعه من التصريح بحبه. وكانت الأمور على هذه الحال حين أدركت أسرة بوربون التي لم يكن بوسعها إلا أن تحسد بيت غيز، وأدركت الميزة التي ستعود عليها من هذا الزواج، فعزمت على أن تنتزعها منه وأن تستفيد هي نفسها بزواج هذه الوريثة من أمير مونبنسيه الشاب. وكان تنفيذ

هذه الخطة ناجحاً إلى درجة أن والدي الآنسة دي ميزيير قررا تزويجها من هذا الأمير الشاب، وذلك خلافاً للوعود التي قطعاها لكردينال لورين. وفوجئ بيت غيز كله بهذا الإجراء، ولكن الدوق كان غارقاً في الأسى والحزن، وكان حبه لها قد جعله يعتبر هذا الإخلاف بالوعد إهانة لا تطاق. وسرعان ما انفجر استياؤه رغم تأنيب كاردينال لورين والدوق دومال أعمامه الذين لم يريدوا أن يتمادى في أمر رأوا أنهم لا يستطيعون منعه، وفقد أعصابه بعنف حتى في حضور أمير مونبنسيه الشاب، فنشأت بينهما كراهية لم تنته إلا بحياتهما. ولما كانت الآنسة دي ميزيير معذبة من أبويها في الزواج من هذا الأمير، ورأت علاوة على ذلك أنها لا تستطيع الزواج من الدوق دي غيز، وعلمت من عفتها أنه من الخطر أن يكون لها صهر رجل كانت تود أن يكون زوجاً لها، قررت أخيراً أن تتبع مشاعر أقاربها وتوسلت إلى السيد دي غيز ألا يضع عقبة أخرى في طريق زواجها. ولذلك تزوجت من أمير مونبنسيه الذي اصطحبها بعد ذلك بقليل إلى شامبيني، وهو المقر المعتاد لأمراء بيته، ليبعدها عن باريس حيث كانت جهود الحرب على وشك السقوط فيما يبدو. وكانت هذه المدينة العظيمة مهددة بالحصار من قبل جيش الهوجونوت بقيادة أمير كوندي الذي كان قد أعلن الحرب على الملك للمرة الثانية. وكان أمير

مونبنسييه قد ارتبط في شبابه بصداقة خاصة جداً مع كونت شابانس، وهو رجل أكبر منه سناً بكثير وذو جدارة استثنائية. وقد كان هذا الكونت شديد الحساسية تجاه تقدير وثقة هذا الأمير الشاب، حتى أنه على عكس ما كان بينه وبين أمير كوندي الذي كان قد أعطاه الأمل في الحصول على وظيفة كبيرة في حزب الهوجونوت، أعلن أنه مع الكاثوليك، ولم يكن يستطيع أن يحمل نفسه على أن يعارض بأي شكل من الأشكال رجلاً كان عزيزاً عليه. ولما لم يكن لهذا التغيير في الحزب أي أساس آخر فقد شك الناس في صحته، وكانت الملكة الأم كاترين دي ميديسيه مرتابة إلى درجة أنها كانت تنوي اعتقاله بعد أن أعلن الهوغونيين الحرب، ولكن أمير مونبنسيه حال دون ذلك وأخذ شابان في طريقه إلى شامبينيي مع زوجته. وسرعان ما كسب الكونت الذي كان يتحلى بلطف ونباهة شديدين تقدير الأميرة دي مونبنسييه، ولم يمض وقت قصير حتى أصبحت ثقتها فيه وصداقتها له أقل مما كانت عليه عند الأمير زوجها. وكان شابان من جانبه ينظر بإعجاب إلى الجمال والروح والفضيلة التي ظهرت في هذه الأميرة الشابة، واستغل الصداقة التي أظهرتها له ليبعث في نفسها مشاعر الفضيلة الخارقة التي تليق بعظمة مولدها، وسرعان ما جعلها من أبرع الناس في العالم. ولما عاد الأمير إلى

البلاط، حيث دعاه استمرار الحرب، بقي الكونت وحده مع الأميرة وظل يكن لها من الاحترام والصداقة ما يتناسب مع جودته وجدارته. وازدادت الثقة من الجانبين، وبلغت من جانب الأميرة دي مونبنسيه مبلغاً عظيماً حتى أنها أخبرته بما كان لديها من ميل إلى السيد دي غيز، بل أخبرته أيضاً بحبها له، ولكنها أخبرته أيضاً في الوقت نفسه أن هذا الميل كاد ينطفئ وأنه لم يبق لها من الميل إلا ما كان ضرورياً لمنع ميل آخر من أن يدخل قلبها، وأن الفضيلة إذا أضيفت إلى هذا الميل الباقي لم يبق لها من القدرة إلا أن تحتقر من يجرؤ على حبها. ولم يكن الكونت الذي كان يعرف صدق هذه الأميرة الجميلة، والذي رأى فيها أيضاً طبعاً يتنافى مع ضعف الشهامة، لم يشك في صدق كلامها، ومع ذلك لم يستطع أن يقاوم هذا السحر الكثير الذي كان يراه عن كثب كل يوم. لقد شغف بحب هذه الأميرة شغفاً شديداً، ومهما يكن من خجله من أن يسمح لنفسه أن تغلبه فقد اضطر أن يستسلم لها ويحبها بأعنف وأصدق عاطفة كانت له في حياته. وإذا لم يكن سيد قلبه، فقد كان في السادسة والعشرين من عمره سيد أفعاله. لم يجلب التغيير الذي طرأ على روحه أي تغيير في سلوكه ولم يشك أحد في حبه. وقد حرص طوال عام كامل على إخفائه عن الأميرة حرصاً شديداً، وكان يعتقد أنه سيظل دائماً على نفس

الرغبة في إخفائه عنها. لقد فعل الحب فيه ما يفعله في كل شخص آخر، لقد جعله يرغب في الجهر به، وبعد كل المشاجرات التي جرت العادة في مثل هذه المناسبات، تجرأ على أن يقول لها إنه يحبها، بعد أن أعد نفسه لمواجهة العواصف التي هدده بها كبرياء هذه الأميرة. ولكنه وجد فيها هدوءاً وبروداً أسوأ ألف مرة من كل ما كان يتوقعه من قسوة. لم تكلف نفسها عناء الغضب منه. وحدثته في كلمات قليلة عن اختلاف صفاتهما وأعمارهما، وعن معرفته الخاصة بفضيلتها وميلها إلى الدوق دي غيز، وفوق كل ذلك ما كان يدين به لصداقة الأمير زوجها وثقته. ظن الكونت أنه سيموت تحت قدميها من الخجل والحزن. فحاولت أن تواسيه بأن أكدت له أنها لن تتذكر أبداً ما أخبرها به للتو وأنها لن تقتنع أبداً بشيء يسيء إليه وأنها لن تعتبره أبداً إلا صديقها الحميم. كانت هذه التأكيدات تريح الكونت كما يمكن للمرء أن يتخيل. ولكنه شعر بازدراء كلمات الأميرة إلى أقصى حد، وفي اليوم التالي، عندما رأى وجهها الصريح كالعادة، تضاعف تأثره إلى النصف. لم يقلل إجراء الأميرة من ذلك. عاشت معه بنفس اللطف المعتاد. وتحدثت إليه مرة أخرى، عندما سنحت المناسبة، عن الميل الذي كان لديها تجاه الدوق دي غيز، وعندما بدأت الشهرة تذيع الصفات العظيمة التي ظهرت في هذا الأمير،

اعترفت له بأنها شعرت بالسرور وأنها سعيدة جداً لرؤيته يستحق ما تكنه له من مشاعر. كل هذه العلامات من الثقة التي كانت عزيزة على الكونت أصبحت لا تطاق بالنسبة له. غير أنه لم يجرؤ على إظهار ذلك للأميرة رغم أنه كان يجرؤ على تذكيرها أحياناً بما كان جريئاً على أن يقوله لها. وبعد غياب سنتين، وبعد أن تم الصلح، عاد أمير مونبنسيه إلى زوجته بعد أن تم الصلح بعد غياب سنتين، وقد غمره المجد الذي ظفر به في حصار باريس ومعركة سان دوني. وقد أدهشه أن يرى جمال هذه الأميرة في مثل هذا الكمال العظيم، وبدافع الغيرة التي كانت طبيعية في نفسه، حزن بعض الشيء، إذ توقع أنه لن يكون الوحيد الذي يجدها جميلة. وكان من دواعي سروره أن يرى الكونت دي شابان مرة أخرى، وهو الذي لم تنقص صداقته له. وسأله في ثقة عن أخبار عقل ومزاج زوجته التي كانت غريبة عنه في الفترة القصيرة التي عاشها معها. وأخبر الكونت الأمير بكل ما يعرفه عن هذه الأميرة من صدق و إخلاص كما لو لم يكن مغرماً بها، كما أنه حذر مدام دي مونبنسيه من كل ما يجب أن تفعله لتكسب قلب زوجها وتقديره، كما أنه حذر مدام دي مونبنسيه من كل ما يجب أن تفعله لتكسب قلب زوجها وتقديرها. وأخيراً دفعه شغف الكونت بطبيعة الحال إلى التفكير فيما يمكن أن يزيد في سعادة

هذه الأميرة التاسعة والعشرين ومجدها، حتى أنه نسي بسهولة ما للعشاق من اهتمامات في أن لا يكون من يحبون من الناس في وئام تام مع أزواجهم. لم يظهر السلام إلا بعد أن ظهر السلام. ونشبت الحرب مرة أخرى في الحال، بخطة الملك لإلقاء القبض على أمير كوندي والأميرال دي شاتيون في نويرس، ولما اكتشفت هذه الخطة بدأت الاستعدادات للحرب مرة أخرى، واضطر أمير مونبنسيه إلى ترك زوجته ليذهب إلى حيث يدعوه واجبه. وتبعه تشابانيس إلى البلاط، بعد أن برر نفسه تماماً للملكة. ولم يكن تركه للأميرة من دون حزن شديد، وهي من جهتها ظلت حزينة جداً على الأخطار التي ستعرض زوجها لها والتي ستعرضه لها الحرب. انسحب قادة الهوغونيين إلى لاروشيل. بواتو وسينتونج في حزبهم، فاشتعلت الحرب بشدة وجمع الملك جميع قواته هناك. ونال دوق أنجو، شقيقه الذي أصبح فيما بعد هنري الثالث، الكثير من المجد من خلال عدة أعمال جيدة، بما في ذلك معركة جارناك، حيث قتل أمير كوندي. وخلال هذه الحرب بدأ الدوق دي غيز يتبوأ مناصب كبيرة ويظهر أنه كان أفضل بكثير من التوقعات الكبيرة التي كانت متوقعة منه. ولم يستطع أمير مونبنسيه الذي كان يكرهه كعدو له وكعدو لبيته على السواء، إلا أن يرى بصعوبة مجد هذا الدوق وكذلك الصداقة التي أظهرها له

الدوق دي أنجو. وبعد أن أتعب الجيشان نفسيهما في كثير من المعارك الصغيرة، انصرفت القوات إلى حين بالتراضي. وبقي الدوق دانجو في لوش لإعطاء النظام لجميع الأماكن التي كان من الممكن أن تتعرض للهجوم. وبقي الدوق دوق غيز معه وعاد أمير مونبنسييه برفقة الكونت شابان إلى شامبيني التي لم تكن بعيدة جداً عن هناك. وكثيراً ما زار الدوق دوك دانجو الأماكن التي حصنها. وفي يوم من الأيام، وبينما كان عائداً إلى لوش من طريق لا يعرفه إلا القليل من حاشيته، قاد الدوق دي جيز الذي كان يفتخر بمعرفته لها القافلة كدليل، ولكن بعد أن سار بعض الوقت ضل الطريق ووجد نفسه على ضفاف نهر صغير لم يتعرف عليه. فأشهر دوق أنجو الحرب عليه لأنه قادهم على غير هدى، وبعد أن توقفوا في هذا المكان، وهم في حالة من الفرح كما اعتاد الأمراء الشبان أن يكونوا عليه، رأوا زورقاً صغيراً كان متوقفاً في وسط النهر، ولما لم يكن واسعاً فقد ميزوا بسهولة الزورق الذي كانوا يسافرون فيه، أعطت هذه المغامرة بهجة جديدة لهذين الأميرين الشابين ولكل من كان في حاشيتهما. بدا لهم الأمر وكأنه شيء من رواية. وقال بعضهم للدوق دي غيز إنه قد أضلهم عن قصد لكي يريهم هذه الجميلة؛ وقال آخرون إنه بعد ما فعلته الصدفة كان عليه أن يقع في حبها، وأكد الدوق دوج

أنجو أنه هو الذي يجب أن يكون حبيبها. وأخيراً، ورغبةً منهم في دفع المغامرة إلى أقصى حد، فقد أرسلوا بعض فرسانهم إلى داخل النهر، بقدر ما استطاعوا، ليصيحوا بهذه السيدة أن مسيو دأنجو هو الذي كان يود العبور إلى الجانب الآخر من الماء وهو يتوسل أن يؤخذ. ولما سمعت هذه السيدة التي كانت أميرة مونبنسييه أن الدوق دأنجو هناك ولم تشك من كثرة من رأتهم على حافة الماء أنه ليس هو، حركت قاربها إلى الأمام لتذهب إلى الجانب الذي كان فيه. وسرعان ما جعلها حسن نظراتها تميزه عن الآخرين، ولكنها ميزت الدوق دي غيز أكثر من غيره. وكان منظره قد جعلها تحمر خجلاً قليلاً، وجعلها تبدو لهؤلاء الأمراء في جمال اعتقدوا أنه خارق للعادة. وقد عرفها الدوق دي غيز في بادئ الأمر، على الرغم من التغير المفيد الذي طرأ عليها في السنوات الثلاث التي لم يرها فيها. فأخبر الدوق دي أنجو من هي، فخجل في بادئ الأمر من هذه الحرية التي أخذ بها، ولكنه لما رأى مدام دي مونبنسييه في غاية الجمال، وهذه المغامرة تسره كثيراً، عزم على إتمامها، وبعد ألف اعتذار وألف إطراء اختلق قضية كبيرة قال إنه كان له وراء النهر، وقبل العرض الذي قدمته له بأن تمر به في زورقها. ودخل وحده مع الدوق دي جيز، وأمر كل من يتبعهما أن يعبروا النهر في نقطة أخرى وأن يلحقوا

بهما في شامبينيي التي أخبرتهم مدام دي مونبنسييه أنها لا تبعد سوى فرسخين. وما كادوا يركبون القارب حتى سألها الدوق دي أنجو عن سبب هذا اللقاء السار وعن سبب وجودها في وسط النهر. فأجابت أنها بعد أن غادرت شامبيني مع زوجها الأمير، بقصد اللحاق به للصيد، وبعد أن وجدت نفسها مرهقة جداً، جاءت إلى ضفاف النهر حيث قادها فضولها لرؤية سمكة سلمون كانت قد علقت في شبكة إلى دخول القارب. ولم يتدخل السيد دي غيز في الحديث، ولكنه شعر أن كل ما أثارته هذه الأميرة في قلبه قد استيقظ بشدة، ففكر في نفسه أنه سيكون من الصعب عليه أن يخرج من هذه المغامرة دون أن يعود إلى وثاقه. وما لبثوا أن وصلوا إلى الشاطئ، حيث وجدوا خيول السيدة دي مونبنسييه ومرافقيها في انتظارهم. وساعدها الدوق دي أنجو والدوق دي غيز على الصعود على صهوة جوادها، فركبت، واستعادت عافيتها برشاقة رائعة. وطوال الطريق، كانت تتحدث إليهم بلطف عن أشياء مختلفة. ولم تكن دهشتهما بمفاتن عقلها أقل من دهشتهما بجمالها، ولم يسعهما إلا أن يعلماها بأنهما مندهشان للغاية. وكانت ترد على مديحهما بكل تواضع يمكن تخيله، ولكنها كانت ترد على مديح الدوق دي جيز بكل برود؛ وكانت تريد أن تحافظ على كبريائها الذي كان يمنعها من أن تبني أي

آمال على ما كان لديها من ميل إليه. وعند وصولهما إلى الفناء الأول من شامبينيي وجدا أمير مونبنسييه وقد عاد لتوه من الصيد. ودهش لرؤية رجلين يسيران إلى جانب زوجته، ولكن دهشته كانت أكبر عندما أدرك عند التدقيق أنهما الدوق دوج دانجو والدوق دي غيز. إن الكراهية التي كان يكنها لهذا الأخير، مقترنة بغيرته الطبيعية، جعلته لا يستسيغ رؤية هذين الأميرين مع زوجته، دون أن يعرف كيف جاءا إلى هناك أو ماذا جاءا ليفعلا في بيته، حتى أنه لم يستطع أن يخفي ما كان يشعر به من حزن. وقد عزا السبب في ذلك بذكاء إلى خوفه من عدم تمكنه من استقبال مثل هذا الأمير العظيم بما يليق بمكانته وكما كان يود. وكان الكونت دي شابان أكثر انزعاجاً لرؤية السيد دي غيز مع السيدة دي مونبنسييه مما كان عليه السيد دي مونبنسييه نفسه. فقد بدت له الصدفة التي جمعت بين هذين الشخصين نذير شؤم بحيث تنبأ بسهولة أن هذه البداية الرومانسية لن تكون بلا عواقب. وفي المساء، قامت السيدة دي مونبنسييه بخدمة منزلها بنفس السرور الذي كانت تقوم به في كل شيء. وفي النهاية، كان ضيوفها مسرورين جداً بها. أما الدوق دي أنجو الذي كان في غاية الشهامة وحسن الخلق، فلم يكن يستطيع أن يرى ثروة تليق به دون أن يتمنى ذلك بحماسة: فقد كان مصاباً بنفس المرض الذي كان

يعانيه مستر دي غيز، وكان يتظاهر دائماً بأن له أعمالاً غير عادية، وقد مكث يومين في شامبينيي دون أن يضطره إلى البقاء هناك إلا سحر مدام دي مونبنسييه، ولم يكن الأمير زوجها يفعل شيئاً لإبقائه هناك. ولم يرحل الدوق دي غيز إلا بعد أن أوضح للسيدة دي مونبنسييه أنه كان بالنسبة لها ما كان عليه في الماضي، ولما كان هواه لم يكن معروفاً لأحد، فقد قال لها عدة مرات أمام الجميع، دون أن يسمع أحد سواها، أن قلبه لم يتغير. وغادر هو والدوق دانجو شامبيني بكثير من الأسف. وسار كلاهما لفترة طويلة في صمت عميق.

ولكن الدوق دي أنجو، بعد أن تخيل فجأة أن ما كان يجعله يحلم أحلام اليقظة قد يكون هو الذي جعل الدوق دي غيز يحلم أحلام اليقظة، سأله فجأة عما إذا كان يفكر في محاسن الأميرة دي مونبنسييه. هذا الطلب المفاجئ، مضافاً إليه ما لاحظه الدوق دي غيز من قبل عن مشاعر الدوق دي أنجو، جعله يدرك أنه سيكون منافسه لا محالة، وأنه من المهم جداً ألا يكشف عن حبه لهذا الأمير. ولإزالة أي شبهة أجابها ضاحكاً بأنه هو نفسه بدا مشغولاً بالخيال الذي اتهمها به، وأنه لم ير من المناسب أن يقاطعها وأن جمال الأميرة دي مونبنسييه لم يكن شيئاً جديداً عليه، وأنه اعتاد أن يتحمل تألقها عندما

قدر لها أن تكون زوجة أخيه، ولكنه يرى أن الجميع لم يبهروا بها. واعترف له الدوق دي أنجو بأنه لم ير قط شيئاً يضاهي هذه الأميرة الشابة، وأنه كان يشعر بأن منظرها قد يكون خطراً عليه إذا ما تعرض له كثيراً. وكان يريد أن يوافقه الدوق دي غيز على أنه يشعر بنفس الشعور، ولكن الدوق الذي كان قد بدأ ينظر إلى حبه نظرة جدية لم يكن يعترف بشيء. وعاد الأميران إلى لوشه، وكثيراً ما كانا يتجاذبان أطراف الحديث عن المغامرة التي لفتت انتباههما إلى الأميرة دي مونبنسييه.

ولم يكن هذا موضوعاً للتسلية في شامبينيي. وكان الأمير دي مونبنسييه غير راض عن كل ما حدث، و إن لم يستطع أن يقول ما هو السبب في ذلك. كان يعتقد أنه من السيئ أن زوجته كانت في ذلك القارب. وبدا له أنها استقبلت هؤلاء الأمراء بسرور بالغ، وكان أكثر ما أغضبه أنها لاحظت أن الدوق دي غيز كان ينظر إليها باهتمام. ومنذ تلك اللحظة غار عليها غيرة شديدة، وذكره ذلك بالهيجان الذي أبداه في زفافها، وكان يخيل إليه أنه كان مغرماً بها حتى في ذلك الحين. وكان الأسى الذي سببته له كل هذه الشكوك قد أزعج أميرة مونبنسييه. وقد حرص الكونت دي شابان، كما كانت عادته، على أن يحول دون وقوعهما في حب بعضهما بعضاً تماماً، وذلك لكي يقنع

الأميرة بصدق عاطفته نحوها وعدم اهتمامه بها. ولم يسعه إلا أن يسألها عن تأثير رؤية الدوق دي غيز عليها. فأخبرته أنها كانت منزعجة من خجلها من ذكرى الميل الذي أبدته له ذات مرة؛ وأنها وجدته أجمل بكثير مما كان عليه في ذلك الوقت، وأنه بدا لها أنه يريد أن يقنعها بأنه لا يزال يحبها، ولكنها أكدت له في الوقت نفسه أنه لا شيء يمكن أن يزعزع عزمها الذي اتخذته على ألا تلزم نفسها أبداً. وكان الكونت دي شابان مسروراً عندما علم بهذا القرار، ولكن لا شيء يمكن أن يطمئنه بشأن الدوق دي غيز. وأخبر الأميرة أنه كان متخوفاً جداً من أن تعود الانطباعات الأولى قريباً، وأفهمها أنه سيتألم أشد الألم، من أجل مصلحتهما المشتركة، إذا ما رآها تغير مشاعرها. وكانت الأميرة دي مونبنسييه دائماً تواصل إجراءاتها معه دائماً، ولا تكاد تستجيب لشيء مما يقوله لها عن عاطفته ولا تعتبره دائماً إلا أفضل صديق في العالم، دون أن تريد أن تشرفه بشرف الاهتمام بعاطفة الحبيب.

وبعد أن عادت الجيوش على أقدامها عاد جميع الأمراء، ورأى أمير مونبنسييه أن من الخير لزوجته أن تذهب إلى باريس حتى لا تكون قريبة جداً من مكان الحرب. فرض الهوغونيون الحصار على مدينة بواتييه. وألقى الدوق دي غيز بنفسه للدفاع عنها وقام بأعمال هي وحدها كفيلة بأن تجعل

أي حياة أخرى غير حياته مجيدة. ثم جاءت معركة مونكونتور[1]. ومرض دوق أنجو، بعد الاستيلاء على سان جان دانجيلي، وترك الجيش في نفس الوقت، إما لعنف مرضه و إما لرغبته في العودة إلى الاستمتاع بالراحة والملذات في باريس، حيث لم يكن وجود أميرة مونبنسييه أقل سبب يجذبه إليها. وبقي الجيش تحت قيادة أمير مونبنسييه، وبعد ذلك بقليل، عندما تم الصلح كان البلاط بأكمله في باريس. وكان جمال الأميرة قد طغى على كل ما كان يحظى بالإعجاب حتى ذلك الحين. لقد جذبت أنظار الجميع بمفاتن عقلها وشخصها. ولم يغير الدوق دوك دانجو في باريس المشاعر التي كان يكنها لها في شامبيني. وكان يحرص كل الحرص على أن يطلعها على ذلك بشتى الوسائل، مع الحرص على ألا يظهره لها بطريقة متوهجة خوفاً من أن يثير غيرة زوجها الأمير. وأخيراً وقع الدوق دي غيز في حبها بعنف، ورغب لأسباب عديدة في أن يخفي عاطفته هذه، فعزم على أن يعلنها لها أولاً حتى يجنب نفسه كل تلك البدايات التي تثير دائماً الضجة والفتنة. وفي يوم من الأيام كان في منزل الملكة في ساعة لم يكن فيها إلا القليل من الناس؛

[1] في 3 أكتوبر 1569، هزمت القوات الكاثوليكية التابعة للملك شارل التاسع بقيادة دوق أنجو قوات الهوغونوت بقيادة الأميرال غاسبار دي كولينيه في مونكونتور في منطقة بواتو.

وكانت الملكة قد تقاعدت لمناقشة بعض الأعمال مع كاردينال لورين، فوصلت أميرة مونبنسييه. فقرر أن ينتهز هذه اللحظة ليتحدث إليها، واقترب منها قائلاً: - قال لها: سأفاجئك يا سيدتي وأغضبك بأن أخبرك بأنني احتفظت دائماً بهذه العاطفة التي كانت معروفة لك من قبل، ولكنها ازدادت كثيراً عند رؤيتك مرة أخرى، بحيث لم تستطع قسوتك ولا كراهية السيد الأمير دي مونبنسييه ولا منافسة الأمير الأول للمملكة أن تزيل لحظة من عنفها. لقد كان من الأحرى بي أن أعلنها لك بأفعالي أكثر مما أعلنها بأقوالي، ولكن يا سيدتي إن أفعالي كانت ستعلمها لغيرك كما تعلمينها أنت، وأرجو أن تعرفي وحدك أنني جريئة بما فيه الكفاية على عشقك. وكانت الأميرة في بادئ الأمر من الدهشة والاضطراب من هذا الكلام لدرجة أنها لم تفكر في مقاطعته، ثم عادت إلى نفسها وبدأت تجيبه، فدخل أمير مونبنسييه. وكان الاضطراب قد ارتسم على وجه الأميرة، وزاد من إحراجها منظر زوجها فسمحت له أن يسمع أكثر مما قال لها الدوق دي غيز للتو. وغادرت الملكة غرفتها وانسحب الدوق ليعالج غيرة الأمير. وفي ذلك المساء وجدت الأميرة دي مونبنسييه في نفس زوجها كل ما يمكن تخيله من الأسى والحزن. فغضب عليها بعنف مروع، ومنعها من التحدث إلى الدوق دي غيز أبداً.

وانسحبت إلى شقتها حزينة حزناً شديداً وشغلت نفسها بالمغامرات التي حلت بها في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي رأت الدوق دي غيز مرة أخرى في منزل الملكة، ولكنه لم يقترب منها واكتفى بأن ينصرف بعدها بقليل ليبين لها أنه لا شيء يمكن أن يتم في غيابها. ولم يمض يوم واحد لم تتلق فيه ألف إشارة خفية عن عاطفة الدوق، ولم يحاول أن يخبرها عنها إلا عندما لم يكن في مقدور أحد أن يراها: ولما كانت مقتنعة تماماً بهذه العاطفة، بدأت على الرغم من كل العهود التي عقدتها في شامبينيي تشعر في أعماق قلبها بشيء مما كان في السابق.

أما الدوق دي أنجو الذي لم يدخر جهداً في إظهار حبه لها أينما رآها والذي لم يفتأ يتبعها إلى أمها الملكة وأختها الأميرة فقد كان يعاملها بصرامة غريبة لا يمكن أن تشفي أي عاطفة غير عاطفته. وقد اكتشف في ذلك الوقت أن هذه الأميرة التي أصبحت ملكة نافار، كانت على شيء من التعلق بالدوق دي غيز؛ ومما زاد ذلك وضوحاً فتور الدوق دي أنجو نحو الدوق دي غيز. وقد سمعت الأميرة دي مونبنسييه بهذا الخبر الذي لم يكن يخطر ببالها ولم يخطر ببالها أن الدوق دي غيز كان أكثر اهتماماً بالدوق دي غيز مما كانت تظن. وكان السيد دي مونبنسييه والد زوجها في ذلك الحين متزوجاً من الآنسة

دي غيز أخت الدوق، وكانت مضطرة إلى رؤيته كثيراً في الأماكن التي كانت تستدعيها مراسم الزفاف. ولم تعد أميرة مونبنسييه قادرة على احتمال أن يجرؤ الرجل الذي كانت فرنسا كلها تعتقد أنه مغرم بمدام على أن يقول لها إنه مغرم بها، وشعرت بالإهانة وكادت تضيق من خداعها لنفسها، ففي أحد الأيام عندما قابلها الدوق دي غيز في منزل أختها على بعد مسافة قصيرة من الآخرين، وأراد أن يحدثها عن عاطفته، قاطعته فجأة وقالت بنبرة صوت تنم عن غضبها:

- إنني لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يتجرأ على الوقوع في حب شخص مثلي على أساس ضعف كان المرء قادراً عليه وهو في الثالثة عشرة من عمره، ولا سيما عندما يكون مغرماً بشخص آخر على مرأى ومسمع من البلاط.

ولم يكن الدوق دي غيز، الذي كان بارعاً جداً ومغرماً جداً، في حاجة إلى استشارة أحد ليسمع المعنى الكامل لكلمات الأميرة. إنني أعترف يا سيدتي بأنني كنت مخطئاً في عدم احتقاري لشرف أن أكون صهر الملك على أن أدعك تشك للحظة واحدة في أنني قد أرغب في قلب غير قلبك، ولكن إذا تكرمتِ عليَّ بالإصغاء إليَّ، فأنا واثق من أنني سأبرر لكِ ما فعلته. ولم تجب الأميرة دي مونبنسييه ولكنها لم تنصرف، ورأى الدوق دي جيز أنها كانت

تمنحه ما يشتهي من الاستماع، فأخبرها أنه لم يكن قد استجلب عطف السيدة بأي عناية فأكرمته بها؛ وأنه لم يكن له بها شغف، وأنه لم يكن قد استجاب إلى ما منحته من شرفها حتى أعطته بعض الأمل في الزواج منها، والحق أن العظمة التي يمكن أن يرفعه إليها هذا الزواج قد ألزمته أن يوليها مزيداً من الاهتمام، وأن هذا هو الذي أثار الشكوك التي كانت تراود الملك والدوق دي أنجو؛ وأن معارضة أي منهما لم تثنه عن خطته، ولكنه إذا لم ترضه هذه الخطة فإنه سيتخلى عنها في الحال ولن يفكر فيها مرة أخرى. إن التضحية التي قدمها الدوق دي غيز للأميرة جعلتها تنسى كل تلك الصرامة والغضب اللذين كانت قد بدأت بهما في الحديث معه. فغيرت لهجتها وأخذت تحدثه عن ضعف مدام في حبها له أولاً، وعن الميزة الكبيرة التي سيجنيها بزواجه منها. وأخيراً، وبدون أن تقول شيئاً يجبر الدوق دي غيز، ذكرته بألف شيء لطيف كان يجده في الآنسة دي ميزيير. وعلى الرغم من أنهما لم يتحدثا منذ وقت طويل، إلا أنهما اعتادا على بعضهما البعض، وعاد قلبيهما بسهولة إلى طريق لم يكن مجهولاً لديهما. وقد أنهيا هذه المحادثة اللطيفة التي جعلت الدوق دي غيز يشعر بسعادة بالغة. وكانت الأميرة مسرورة عندما علمت أنه يحبها بصدق. ولكنها عندما كانت في مكتبها لم تفكر في

الخجل الذي أصابها لأنها سمحت لنفسها أن تقتنع بسهولة بأعذار الدوق دي غيز، وفي الحرج الذي كانت على وشك أن تقع فيه بإلزام نفسها بشيء كانت تنظر إليه بمثل هذا الرعب، وفي المصائب الرهيبة التي يمكن أن تلقيها فيها غيرة زوجها!

وقد حملته هذه الأفكار على اتخاذ قرارات جديدة، ولكنها تبددت في اليوم التالي برؤية الدوقة دي غيز. ولم يفشل أبداً في أن يطلعها على ما كان يحدث بينه وبين السيدة. وقد أتاح له التحالف الجديد بين منزليهما فرصة التحدث إليها كثيراً. ولكنه لم يكن يجد صعوبة في علاج غيرتها من جمال مدام التي لم يكن هناك من قسم يطمئنها منه. وقد خدمت هذه الغيرة الأميرة دي مونبنسييه في الدفاع عن بقية قلبها ضد عناية الدوق دي غيز الذي كان قد فاز بمعظمها. وكان زواج الملك من ابنة الإمبراطور ماكسيميليان قد ملأ البلاط بالاحتفالات والابتهاج. وأدى الملك عرض باليه رقصت فيه السيدة وجميع الأميرات. ولم ينافسه على جائزة الجمال سوى الأميرة دي مونبنسييه. ورقص الدوق دي أنجو، وهو مدخل مغربي، وكان الدوق دي غيز مع أربع أخريات في مدخله. وكانت ملابسهم جميعاً متشابهة، كما هي عادة ملابس الذين يرقصون في نفس المدخل. وفي المرة الأولى التي رقص فيها الباليه

قال الدوق دي غيز، قبل أن يرقص، ولم يكن قد ارتدى قناعه بعد، بضع كلمات في أثناء رقصه للأميرة دي مونبنسييه. ولاحظت أن الأمير، زوجها، قد لاحظ ذلك، الأمر الذي أقلقها. وبعد قليل، رأت الدوق دي أنجو بقناعه وزي المغاربة، وهو مقبل عليها ليتحدث إليها، فقلقت، وظنت أنه الدوق دي غيز مرة أخرى، فاقتربت منه قائلة له: (هذا المساء، لا تنظر إلا إلى سيدتي) وقالت له: (لن أغار منك، أنا آمرك، أنا مراقبة، لا تقترب مني مرة أخرى).

وانسحبت بمجرد أن أنهت هذه الكلمات. غُمر الدوق دوك دانجو كما لو كان قد صُعق من الرعد. لقد رأى في تلك اللحظة أن له منافساً محبوباً. وفهم من اسم السيدة أن هذا المنافس هو الدوق دي جيز، ولم يكن يشك في أن الأميرة أخته هي التضحية التي جعلت الأميرة دي مونبنسييه مواتية لرغبات منافسها. لقد كانت الغيرة والحقد والغيظ، إلى جانب ما كان يكنه له من كراهية قد فعل في نفسه كل ما يمكن أن يتصوره من عنف في نفسه، وكان يمكن أن يبدي في ذلك الوقت بعض الإشارات الدامية التي تدل على يأسه لولا أن ساعده في ذلك ما كان يتمتع به من حياء طبيعي وألزمه بأسباب قوية في الحالة التي كانت عليها الأمور ألا يقدم على شيء ضد الدوق دي غيز. غير أنه لم يستطع مع ذلك أن يحرم نفسه من سرور إخباره بأنه يعرف سر

حبه، واقترب منه وهو يغادر الغرفة التي كانا يرقصان فيها وقال له: (إن هذا كثير جداً) وأضاف: (إن جرأتك على رفع عينيك إلى أختي وأخذ عشيقتي مني. إن مراعاة الملك تمنعني من الاندفاع، ولكن تذكر

أن فقدانك لحياتك ربما كان أقل ما سأعاقبك به على وقاحتك في يوم ما. لم تكن كبرياء الدوق دي غيز معتادة على مثل هذه التهديدات. ولكنه لم يتمكن من الرد، لأن الملك الذي كان راحلًا في ذلك الوقت كان قد دعاهما معًا، ولكنهما نقشا في قلبه رغبة في الانتقام عمل طوال حياته على إرضائها. وفي مساء ذلك اليوم نفسه أوكلت إليه الدوقة دوك دانجو كل أنواع المكايد مع الملك. وأقنعها بأن السيدة لن ترضى أبداً أن تتزوج من ملك نافار الذي اقترح أن تتزوج منه، ما دام دوق غيز مسموحاً له أن يقترب منها، وأنه يخجل أن يسمح لأحد رعاياه، إرضاء لغروره، أن يعرقل شيئاً كان من شأنه أن يجلب السلام لفرنسا. لقد كان الملك حاقداً بما فيه الكفاية على الدوق دي غيز. وقد زاده هذا الكلام كثيراً حتى إذا ما رآه في اليوم التالي وهو يدخل الحفلة الراقصة في قصر الملكة وقد تزين بعدد لا حصر له من الجواهر، بل إنه كان أكثر تزيناً بحسن مظهره، وقف في المدخل وسأله فجأة إلى أين هو ذاهب. فأخبره الدوق، دون أن يستغرب، أنه جاء ليقدم له خدماته الأكثر

تواضعاً؛ فأجابه الملك بأنه لا حاجة له بالخدمات التي يقدمها له، وانصرف دون أن ينظر إليه. ودخل الدوق دي غيز الغرفة غاضباً من الملك والدوق دانجو معاً. ولكن حزنه زاد من كبريائه الطبيعي، وبدافع من الحقد اقترب من السيدة أكثر مما اعتاد؛ أضف إلى ذلك أن ما أخبره به الدوق دي أنجو عن الأميرة دي مونبنسييه منعه من النظر إليها. وكان الدوق دوك دانجو يراقبهما بعناية. وأظهرت عينا الأميرة على الرغم من نفسها شيئاً من الأسى عندما تحدث الدوق دي غيز إلى السيدة. وكان الدوق دي أنجو قد فهم مما قالته عندما أخطأت في الظن بمستر دي غيز أنها تغار منه، فأراد أن يربكها فقال لها: (إن من مصلحتك يا سيدتي لا من مصلحتي أن أقول لك إن الدوق دي غيز لا يستحق أن تختاريه على حسابي. أرجوك لا تقاطعيني لتخبريني بعكس الحقيقة التي أعرفها جيداً. إنه يخدعك يا سيدتي ويضحي بكِ من أجل أختي كما ضحى بها من أجلك. إنه رجل لا يقدر إلا على الطموح، ولكن بما أنه قد حالفه الحظ السعيد في إرضائك، فهذا يكفي. لن أقف في طريق الثروة التي لا شك في أنني أستحقها أفضل منه. سأكون قد جعلت نفسي غير جدير إذا ما أصررت أكثر من ذلك على قهر قلب يمتلكه شخص آخر. إنه أكثر من اللازم أن أجتذب لامبالاتك فقط. أنا لا أريد أن أفسح المجال

للكراهية بإلحاحك أكثر من ذلك مع أكثر عاطفة مخلصة كانت على الإطلاق. ولم يكد الدوق دي أنجو الذي كان متأثراً بالحب والألم أن يكمل هذه الكلمات، ومع أنه بدأ كلامه بروح الحقد والانتقام، إلا أنه تأثر عندما فكر في جمال الأميرة والخسارة التي كان يكبدها بفقدانه الأمل في أن يحبها حتى أنه دون أن ينتظر ردها ترك الحفلة متظاهراً بالمرض وعاد إلى بيته ليحلم بسوء حظه. وظلت الأميرة دي مونبنسييه حزينة مضطربة، كما يمكن أن تتصور. فرؤية سمعتها وسر حياتها في يد أمير أساءت معاملته، وعلمها منه، دون أن تستطيع أن تشك في ذلك، أنها خدعت من قبل حبيبها، كانت أموراً لا تكاد تعطيها حرية العقل التي يتطلبها مكان مقدر له الفرح. ومع ذلك فقد كان عليها أن تبقى هناك ثم تذهب لتناول العشاء مع دوقة مونبنسييه، حماتها، التي اصطحبتها معها. وتبعها الدوق دي غيز، الذي كان يتحرق شوقاً ليخبرها بما أخبره به الدوق دوك دي أنجو في اليوم السابق، إلى منزل أخته. ولكن ماذا كانت دهشته حين أراد أن يتحدث إلى هذه الأميرة الجميلة، فوجدها لا تتحدث إليه إلا لتوجيه اللوم المروع! ولقد كان الحقد هو الذي جعلها تصدر عنه هذا العتاب المشوش الذي لم يستطع أن يفهم منه إلا أنها كانت تتهمه بالكفر والخيانة. و إذ غلبه اليأس من أن يجد مثل هذه الزيادة

العظيمة في الألم حيث كان يأمل أن يجد العزاء عن كل متاعبه، وأحب هذه الأميرة حباً لم يعد يسمح له أن يعيش في شك من أن يكون محبوباً منها، قرر فجأة:

- قال لها: "ستكونين راضية يا سيدتي. سأفعل من أجلكِ ما لم تستطع كل القوى الملكية أن تحصل عليه مني. إن ذلك سيكلفني ثروتي، ولكن ذلك قليل بما يكفي لإرضائك. ولم يلبث عند أخته الدوقة طويلاً حتى ذهب في تلك الساعة بالذات إلى الكرادلة أعمامه، ليقابلهم بحجة المعاملة السيئة التي لقيها من الملك، وجعلهم يرون أن حاجته إلى ثروته كبيرة جداً ليظهر لهم أنه لم يكن يفكر في الزواج من مدام حتى أجبرهم على عقد زواجه من الأميرة دي بورتيان التي سبق ذكرها. وسرعان ما انتشر خبر هذا الزواج في جميع أنحاء باريس. ففوجئ الجميع بهذا الخبر، وتأثرت أميرة دي مونبنسييه فرحاً وحزناً. فقد كانت مسرورة جداً لما رأت من سلطتها على الدوق دي غيز، وفي الوقت نفسه كانت غاضبة من أن تجعله يتخلى عن شيء مفيد مثل زواج السيدة. وكان الدوق دي غيز، الذي كان يريد على الأقل أن يكافئه الحب على ما فقده من ثروة، ألح على الأميرة أن تستدعيه على انفراد لتوضح له ما وجهته إليه من لوم ظالم. وقد حصل على أنها ستكون في منزل دوقة

مونبنسييه، أخته، في وقت لا تكون فيه الدوقة موجودة في منزلها وأنه يستطيع أن يتحدث إليها على انفراد. وكان الدوق دي غيز مسروراً لأنه استطاع أن يلقي بنفسه عند قدميها، وأن يتحدث إليها بحرية عن عاطفته وأن يخبرها بما عاناه نتيجة لشكوكها. ولم تستطع الأميرة أن تخرج من ذهنها ما أخبرها به الدوق دي أنجو، على الرغم من أن الإجراء الذي اتبعه الدوق دي غيز كان يجب أن يطمئنها تماماً. فأخبرته أن لديها من الأسباب ما يدعوها إلى الاعتقاد بأنه خانها، لأن الدوق دي أنجو كان يعرف ما لم يكن يعرفه إلا من خلاله، فاعتقدت أنه قد خانها. ولم يكن الدوق دي غيز يعرف كيف يدافع عن نفسه، وكان محرجاً كالأميرة دي مونبنسييه من تخمين ما يمكن أن يكون قد كشفه من معلوماته. وأخيراً، وفي أثناء حديثهما، وبينما كانت تشير إليه بأنه أخطأ في التعجيل بزواجه من الأميرة دي بورتيان والتخلي عن زواج مدام الذي كان في صالحه، قالت له إنه يستطيع أن يحكم جيداً أنها لم تكن تغار عليه لأنها هي نفسها كانت قد ناشدته يوم الباليه أن لا يضع عينيه إلا على مدام. فأخبره الدوق دي غيز أنها كانت تنوي أن تعطيه هذا الأمر، ولكنها بالتأكيد لم تفعل ذلك. أصرت الأميرة على خلاف ذلك. وأخيراً، وبمحاجتها وسبر أغوارها وجدوا أنها لا بد أن تكون قد أخطأت في تشابه الثياب، وأنها

هي نفسها قد علمت الدوق دي أنجو ما اتهمت الدوق دي غيز بأنه علمها إياه. أما الدوق دي غيز الذي كاد أن يبرر في ذهنه بزواجه، فقد بررته هذه المحادثة تبريراً تاماً. فهذه الأميرة الجميلة لم تستطع أن ترفض قلبها لرجل امتلكه ذات يوم، وكان قد تخلى عن كل شيء من أجلها. ولذلك فقد وافقت على قبول عهوده وسمحت له بأن يصدق أنها لم تكن متبلدة الإحساس بعاطفته. وقد أنهى وصول دوقة مونبنسييه، حماته، هذه المحادثة ومنع الدوق دي غيز من أن يريها ما ينقله إليها من فرحه.

وبعد قليل ذهب البلاط إلى بلوا حيث تبعتها أميرة مونبنسييه، وتم عقد زواج السيدة من ملك نافار. وكان الدوق دي غيز، الذي لم يعرف من العظمة والحظوة إلا أن يكون محبوباً من الأميرة، قد غمره الفرح بإتمام هذا الزواج الذي كان من شأنه أن يملأه حزناً في وقت آخر. ولم يستطع أن يخفي حبه إلى درجة أن أمير مونبنسييه لم يلمح هذا الحب، ولم يعد يسيطر على غيرته فأمر زوجته بالذهاب إلى شامبينيي. وكان هذا الأمر قاسياً جداً بالنسبة لها، ولكنها اضطرت إلى الطاعة. ووجدت طريقة لتوديع الدوق دي غيز على وجه الخصوص، ولكنها وجدت نفسها في حيرة من أمرها في العثور على طريقة موثوق بها للكتابة إليه. وأخيراً، وبعد كثير من البحث، ألقت عينيها على

الكونت دي شابان الذي كانت لا تزال تعده صديقاً لها، دون أن تضع في اعتبارها أنه حبيبها. وكان الدوق دي غيز يعرف إلى أي حد كان هذا الكونت صديقاً للأمير دي مونبنسييه، فراعه أن تختاره صديقاً لها، ولكنها أجابت عليه بما فيه الكفاية لإخلاصه فطمأنته. وفارقها بكل الأسى الذي يمكن أن يسببه غياب من أحبها بشغف. أما الكونت دي شابان الذي كان مريضاً في باريس أثناء إقامة الأميرة دي مونبنسييه في بلوا فقد كان يعلم أنها ذاهبة إلى شامبينيي فوجدها في الطريق ليذهب معها. فأغدقت عليه بألف مداعبة وألف صداقة وأظهرت له من الصبر غير العادي على التحدث إليها على انفراد، الأمر الذي أسعده في بادئ الأمر. ولكن ما كان أشد دهشته وألمه حين وجد أن هذا التلهف لم يكن إلا لتخبره أنها كانت تحب الدوق دي غيز حباً جارفاً وأنها تبادله نفس الحب! لم تسمح لها دهشتها وألمها بالرد. ولم تكترث الأميرة التي كانت مفعمة بعاطفتها الجياشة ووجدت راحة شديدة في إخباره بذلك، ولم تكترث لصمته وأخذت تقص عليه أصغر ملابسات مغامرتها. وأخبرته كيف أن الدوق دي غيز وقد اتفقا على أن يتلقيا الرسائل التي كانا يتراسلان بها عن طريقها. وكانت الضربة القاضية على الكونت

دي شابان أن يرى أن عشيقته تريده أن يخدم غريمه، وأنها تقترح عليه ذلك كما لو كان أمراً يجب أن يسعدها.

كان مسيطرًا على نفسه تمامًا لدرجة أنه أخفى كل مشاعره عنها. ولم يكن يخبرها إلا كم كان مندهشاً لرؤيته هذا التغير الكبير الذي طرأ عليها. وكان يأمل في بادئ الأمر أن هذا التغير الذي قضى على كل آماله سيقضي على كل عواطفه أيضاً، ولكنه وجد هذه الأميرة فاتنة جداً، وقد زاد جمالها الطبيعي جمالاً عظيماً بفضل ما أضفاه عليها هواء البلاط من رقة ورواء، حتى أنه شعر أنه يحبها أكثر من أي وقت مضى. وكانت كل الأسرار التي أفضت بها إليه عن رقة مشاعرها نحو الدوق دي غيز ورقتها قد أظهرت له قيمة قلب هذه الأميرة وجعلته يرغب في امتلاكه. ولما كانت عاطفته هذه هي أعجب ما في العالم، فقد أحدثت في نفسه أعجب ما في العالم من تأثير، لأنها جعلته يعقد العزم على أن يأخذ رسائل غريمه إلى عشيقته. وأثار غياب الدوق دي غيز حزناً مميتاً في نفس الأميرة دي مونبنسييه؛ وكانت لا ترجو الراحة إلا عن طريق رسائله، وكانت تزعج الكونت دي شابان بلا انقطاع لتعرف ما إذا كان لم يتلق أي رسالة منها، وكادت أن تأخذ عليه عدم تلقيها في وقت قريب. وأخيراً وصله بعضها من أحد سادة الدوق دي غيز، فحملها إليها في نفس

الساعة حتى لا يؤخر فرحتها لحظة واحدة. وكان السرور الذي شعرت به عند تلقيها هذه الرسائل بالغاً. ولم تكلف نفسها عناء إخفاء ذلك عنه وجعلته يتجرع كل ما يمكن تخيله من سموم بقراءة هذه الرسائل والرد الرقيق الشهم الذي قدمته إليه. وتلقى هذا الرد على الرجل النبيل بنفس الإخلاص الذي رد به على رسالة الأميرة، ولكن بألم أكبر. غير أنه كان يواسي نفسه قليلاً بفكرة أن الأميرة ستفكر فيما فعله من أجلها وأنها ستكون ممتنة له. ولما وجد أنها كانت تزداد قسوة عليه يوماً بعد يوم، بسبب الحزن الذي كانت تشعر به في مكان آخر، أخذ يتوسل إليها أن تفكر قليلاً فيما كانت تجعله يعانيه. وكانت الأميرة، التي لم يكن في ذهنها سوى الدوق دي غيز، والتي كانت تعتقد أنه وحده الجدير بحبها، قد ظنت أنه من الخطأ أن يتجرأ أحد غيره على التفكير فيها، حتى أنها عاملت الكونت دي شابان في هذه المناسبة أسوأ بكثير مما فعلت في المرة الأولى التي تحدث إليها بحبه. وعلى الرغم من أن عاطفته كانت شديدة وصبره كان شديداً ولم يجربه، فقد ترك الأميرة وذهب للإقامة عند أحد أصدقائه في حي شامبينيي حيث كتب إليها بكل ما يمكن أن يسببه مثل هذا الإجراء الغريب من غضب، ولكن مع ذلك بكل الاحترام الذي كان يجب أن يكون لصفته، وودعها في رسالته وداعاً أبدياً. فبدأت الأميرة تندم

على أنها كانت غير لطيفة مع رجل كان لها عليه كل هذا القدر من السلطة؛ ولم تستطع أن تحمل نفسها على فقدانه ليس فقط بسبب الصداقة التي كانت تكنها له، بل أيضاً من أجل حبها الذي كان ضرورياً جداً بالنسبة لها، فأخبرته أنها تريد أن تتحدث معه مرة أخرى تماماً، وبعد ذلك تركته حراً يفعل ما يشاء. يكون المرء ضعيفًا جدًا عندما يكون عاشقًا. وعاد الكونت، وفي أقل من ساعة كان جمال الأميرة دي مونبنسييه وذكاءها وبضع كلمات لطيفة جعلته أكثر خضوعاً مما كان عليه في أي وقت مضى، حتى أنه أعطاها بعض الرسائل التي تلقاها لتوه من الدوق دي غيز.

وكان السرور الذي شعرت به عند تلقيها هذه الرسائل بالغاً. ولم تكلف نفسها عناء إخفاء ذلك عنه وجعلته يتجرع كل ما يمكن تخيله من سموم بقراءة هذه الرسائل والرد الرقيق الشهم الذي قدمته إليه. وتلقى هذا الرد على الرجل النبيل بنفس الإخلاص الذي رد به على رسالة الأميرة، ولكن بألم أكبر. غير أنه كان يواسي نفسه قليلاً بفكرة أن الأميرة ستفكر فيما فعله من أجلها وأنها ستكون ممتنة له. ولما وجد أنها كانت تزداد قسوة عليه يوماً بعد يوم، بسبب الحزن الذي كانت تشعر به في مكان آخر، أخذ يتوسل إليها أن تفكر قليلاً فيما كانت تجعله يعانيه. وكانت الأميرة، التي لم يكن في ذهنها سوى الدوق

دي غيز، والتي كانت تعتقد أنه وحده الجدير بحبها، قد ظنت أنه من الخطأ أن يتجرأ أحد غيره على التفكير فيها، حتى أنها عاملت الكونت دي شابان في هذه المناسبة أسوأ بكثير مما فعلت في المرة الأولى التي تحدث إليها بحبه. وعلى الرغم من أن عاطفته كانت شديدة وصبره كان شديداً ولم يجربه، فقد ترك الأميرة وذهب للإقامة عند أحد أصدقائه في حي شامبينيي حيث كتب إليها بكل ما يمكن أن يسببه مثل هذا الإجراء الغريب من غضب، ولكن مع ذلك بكل الاحترام الذي كان يجب أن يكون لصفته، وودعها في رسالته وداعاً أبدياً. فبدأت الأميرة تندم على أنها كانت غير لطيفة مع رجل كان لها عليه كل هذا القدر من السلطة؛ ولم تستطع أن تحمل نفسها على فقدانه ليس فقط بسبب الصداقة التي كانت تكنها له ولكن أيضاً من أجل حبها الذي كان ضرورياً جداً بالنسبة لها، فأخبرته أنها تريد أن تتحدث معه مرة أخرى تماماً، وبعد ذلك تركته حراً يفعل ما يشاء. يكون المرء ضعيفًا جدًا عندما يكون عاشقًا. وعاد الكونت وفي أقل من ساعة، كان جمال الأميرة دي مونبنسييه وذكاءها وبضع كلمات لطيفة جعلته أكثر خضوعاً مما كان عليه في أي وقت مضى، حتى أنه أعطاها بعض الرسائل التي تلقاها لتوه من الدوق دي غيز.

إذا لم يكن من مصلحتك أن تفعل ذلك. إنني لا أريد أن أحرم من أعشقها من هذا الرضا العظيم، ولا أريد أن أكون سبباً في أن تبحث عن أناس أقل إخلاصاً مني للحصول عليه. نعم يا سيدتي، إذا شئتِ يا سيدتي، سأذهب لأحضر الدوق دي غيز هذا المساء؛ لأن تركه في مكانه خطر جداً حيث هو، وسأحضره إلى شقتك. - ولكن كيف وبأي وسيلة؟" قاطعت الأميرة. - آه يا سيدتي"، فصرخ الكونت: "آه يا سيدتي، هذه هي نهاية الأمر، بما أنك الآن تتشاورين فقط في الوسيلة. سيأتي يا سيدتي، هذا الحبيب المبارك. سآتي به عبر الحديقة؛ فقط أعطي الأوامر للمرأة التي تثقين بها أن تنزل الجسر المتحرك الصغير من حجرة الانتظار إلى الردهة في منتصف الليل، ولا تقلقي بشأن الباقي. بهذه الكلمات نهض واقفاً على قدميه، ودون أن ينتظر أي موافقة أخرى من الأميرة دي مونبنسييه، امتطى جواده وتوجه إلى الدوق دي غيز الذي كان ينتظره بفارغ الصبر. كانت الأميرة دي مونبنسييه مضطربة جداً لدرجة أنها لم تعد إلى مقعدها لبعض الوقت. وكانت أول خطوة قامت بها هي أن تستدعي الكونت دي شابان لتمنعه من إحضار الدوق دي غيز، ولكنها لم تكن تملك القوة على ذلك. وظنت أن كل ما كان عليها أن تفعله هو عدم إنزال الجسر دون أن تستدعيه. وظنت أنها ستستمر على هذا القرار. فلما

اقتربت ساعة الاستدعاء لم تعد تستطيع مقاومة الرغبة في رؤية حبيبها الذي كانت تظنه جديراً بها، وأوعزت إلى إحدى زوجتيها بكل ما يجب عمله لإدخال الدوق دي غيز إلى شقتها. غير أن الدوق والدوق دي شابان كان كل منهما يقترب من شامبيني، ولكن في حالة مختلفة تماماً. فالدوق أسلم روحه للفرح وكل ما يلهمه الأمل في غاية السرور، والكونت أسلم نفسه لليأس والغضب الذي دفعه ألف مرة إلى أن يغرز سيفه في جسد غريمه. وأخيراً وصلا إلى بارك دي شامبيني حيث تركا خيولهما مع مرافق دوق غيز، ثم اجتازا ثغرات في الأسوار حتى دخلا الروضة.

وكان الكونت دي شابان في غمرة يأسه لا يزال لديه بعض الأمل في أن يعود العقل إلى أميرة مونبنسييه وأن تقرر في النهاية ألا ترى الدوق دي غيز. فلما رأى هذا الجسر الصغير منخفضاً لم يستطع أن يشك في عكس ذلك، وكان في ذلك الوقت أيضاً مستعداً للذهاب إلى أقصى الحدود. ولكنه فكر في أنه لو أحدث ضجة لسمعها على ما يبدو أمير مونبنسييه الذي كانت شقته تطل على نفس الردهة، وأن كل هذه الفوضى ستقع عندئذ على أكثر الناس حباً له، فهدأ غضبه في تلك الساعة بالذات، وانتهى من إحضار الدوق دي غيز إلى قدمي أميرته. ولم يستطع أن يحمل نفسه على أن يكون شاهداً على حديثهما،

على الرغم من أن الأميرة قالت إنها ترغب في ذلك، وهو نفسه كان يرغب في ذلك. وانسحب إلى ممر صغير في جانب شقة الأمير دي مونبنسييه وفي نفسه أتعس الأفكار التي شغلت ذهن عاشق، فانسحب إلى ممر صغير في جانب شقة الأمير دي مونبنسييه. غير أنه مهما كانت الضجة الصغيرة التي أحدثاها أثناء مرورهما فوق الجسر، فإن الأمير دي مونبنسييه الذي كان لسوء الحظ مستيقظاً في ذلك الوقت، سمعها وطلب من أحد خدمه أن ينهض ليرى ما هي. أطل الخادم برأسه إلى النافذة، ورأى من خلال ظلام الليل أن الجسر قد تم إنزاله. فأخبر سيده، الذي أمره في الوقت نفسه أن يذهب إلى الحديقة ليرى ما يمكن أن يكون. وبعد لحظات نهض هو نفسه قلقاً لأنه ظن أنه سمع أحداً يمشي، وذهب مباشرة إلى شقة الأميرة، زوجته، التي كانت على الجسر. وحينما اقترب من هذا الممر الصغير حيث كان الكونت دي شابانس، طلبت الأميرة دي مونبنسييه التي كانت تخجل نوعاً ما أن تجد نفسها وحيدة مع الدوق دي غيز، من الكونت عدة مرات أن يدخل غرفتها. وكان دائماً ما يعتذر، وكلما ألحت عليه أكثر من ذلك، وقد تملكه الغضب والغيظ، أجابها بصوت عالٍ جداً بحيث سمعها أمير مونبنسييه ولكن بصوت مشوش بحيث لم يسمع الأمير إلا صوت رجل دون أن يميز صوت الكونت. مثل هذه المغامرة كانت

ستجعل العقل أكثر غضباً. فأدخلت في الأمير أولاً فائض الغضب والغيظ، فطرق الباب في الحال باندفاع، وصاح ليُفتح له الباب. ففوجئت الأميرة والدوق دي غيز والكونت دي شابان بأقسى ما في العالم من المفاجأة. وأدرك هذا الأخير عند سماعه صوت الأمير في البداية أنه من المستحيل أن يمنعه ذلك من الاعتقاد بأنه لا يوجد أحد في غرفة نوم الأميرة زوجته، وقد تبين له في هذه اللحظة من شدة عاطفته أنه إذا وجد الدوق دي غيز هناك فإن مدام دي مونبنسييه ستلقى أسوأ ما في الأمر، وأن مدام دي مونبنسييه ستشعر بألم رؤيته مقتولاً في عينيها، وأن حياة هذه الأميرة لن تكون في مأمن، فعزم بسخاء لا مثيل له على أن يعرض نفسه للخطر لإنقاذ عشيقة جاحدة وغريمة محبوبة. وبينما كان أمير مونبنسييه يطرق الباب ألف طرقة، إذ جاء إلى الدوق دي جيز الذي لم يدر ما القرار الذي يجب أن يتخذه، فوضعه بين يدي هذه المرأة التي أدخلته من الجسر، ليجعله يخرج من نفس المكان، بينما هو يعرض نفسه لغضب الأمير. ولم يكد الدوق يخرج من حجرة الانتظار حتى دخل الأمير بعد أن كسر باب الممر، ودخل الغرفة كرجل يتملكه الغضب ويبحث عن شخص ينفس عن غضبه عليه. ولكنه عندما لم ير إلا الكونت دي شابانس، ورآه بلا حراك، متكئاً على المنضدة ووجهه ملطخ بالحزن، ظل

هو نفسه بلا حراك، ولم تجعله المفاجأة التي وجد فيها في غرفة زوجته رجل العالم الذي كان يحبه أكثر من غيره في غرفة زوجته وحيداً وفي الليل، في وضع لا يسمح له بالكلام. وكانت الأميرة شبه مغمى عليها على الأرض، وربما لم يسبق أن وضع الحظ ثلاثة أشخاص في مثل هذه الحالة التي يرثى لها. وأخيراً تحدث الأمير دي مونبنسييه الذي لم يكن يصدق أنه يرى ما يراه، والذي أراد أن يفرز الفوضى التي وقع فيها للتو، تحدث إلى الكونت بنبرة تدل على أنه لا يزال يكن له بعض الصداقة: (ماذا أرى؟ هل هو وهم أم حقيقة؟ هل من المعقول أن رجلاً أحببته حباً جماً يختار زوجتي دون سائر النساء ليغريها بالفاحشة؟ وأنت يا سيدتي"، قال للأميرة وهو يلتفت إلى جانبها: "أما كان يكفيك يا سيدتي أن تسلبيني قلبك وشرفي دون أن تسلبي الرجل الوحيد الذي كان يمكن أن يعزيني عن هذه المصائب؟ أجيبيني عن هذه المغامرة التي لا أستطيع أن أصدق كما يبدو لي، أجبيني عن هذا أو ذاك.

وعجزت الأميرة عن الإجابة، وفتح الكونت دي شابان فمه عدة مرات دون أن يتمكن من الكلام، وقال أخيراً: إنني مجرم في حقك وغير جدير بالصداقة التي تكنينها لي، ولكن ليس هذا ما تتصورينه. أنا أكثر تعاسة منك وأكثر يأساً. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك. إن موتي سوف يثأر لك، و إذا

أردت أن تعطيني إياه الآن فسوف تعطيني الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسعدني. إن هذه الكلمات التي نطق بها بألم مميت، وبجوّ يدل على براءته، بدلاً من أن تنير الأمير دي مونبنسييه أقنعته أكثر فأكثر بأن في هذه المغامرة لغزاً ما لا يستطيع أن يخمنه، ويزداد يأسه مع هذا الغموض:

- خذ حياتي بنفسك، قال لها: - أو أعطني توضيحاً لكلامك؛ فأنا لا أفهم شيئاً. أنت مدين بهذا التوضيح لصداقتي. أنت مدين باعتدالي، لأن أي شخص آخر غيري كان سيثأر لحياتك بهذه الإهانة الحساسة التي تعرضت لها.

- قاطعه الكونت قائلاً: "المظاهر كاذبة جداً".

- فأجابه الأمير: (آه، هذا كثير جداً؛ يجب أن أنتقم، ثم سأوضح نفسي في وقت فراغي). وبينما كان يقول هذه الكلمات، اقترب من الكونت دي شابان بحركة رجل يحمله الغضب. فانتفضت الأميرة خوفاً من أن تصيبها مصيبة ما (وهو ما لا يمكن أن يحدث، لأن زوجها لم يكن معه سيف) فنهضت لتقف بينهما. ولكن ضعفها جعلها تستسلم لهذا الجهد، وعندما اقتربت من زوجها سقطت مغشياً عليها عند قدميه. وتأثر الأمير بهذا الإغماء أكثر من تأثره بالهدوء الذي وجد عليه الكونت عندما اقترب منه؛ ولم يعد قادراً على تحمل

رؤية شخصين جعلاه يشعر بالحزن الشديد، فأدار رأسه إلى الناحية الأخرى وترك نفسه على سرير زوجته وقد غمره حزن لا يصدق. وغادر الكونت دي شابان وهو نادم ندماً شديداً على إساءته للصداقة التي نالها من أجلها الكثير من العلامات، ولم يكن يعتقد أنه يستطيع أن يكفر عما فعله، غادر الغرفة فجأة ومر من شقة الأمير التي وجد أبوابها مفتوحة، ونزل إلى الفناء. وأُعطي له جوادان وانطلق إلى الريف، ولم يكن يهتدي إلا بيأسه. غير أن أمير مونبنسيه رأى أن الأميرة لم تتعافى من نوبة الإغماء التي أصابتها، فتركها بين أيدي زوجاته وانصرف إلى غرفته وهو في ألم شديد. أما الدوق دي غيز، الذي كان لحسن الحظ قد غادر الحديقة دون أن يدري ما يفعل، فقد كان مرتبكاً جداً، فذهب على بعد فراسخ قليلة من شامبينيي ولكنه لم يستطع أن يمضي أبعد من ذلك دون أن يعرف أخبار الأميرة. فتوقف في إحدى الغابات، وأرسل مرافقه ليعرف من الكونت دي شابان ما حدث لهذه المغامرة الرهيبة. ولم يعثر الخفير على الكونت دي شابان، ولكنه سمع من آخرين أن الأميرة دي مونبنسييه مريضة مرضاً شديداً. وقد زاد من قلق دوق غيز ما أخبره به خادمه من أن دوق غيز قد ازداد قلقه مما أخبره به خادمه، ولما لم يستطع أن يخفف من قلقه اضطر إلى العودة إلى أعمامه حتى لا يثير الشكوك برحلة

أطول. وكان فرسان دوق غيز قد أخبروه بالحقيقة قائلين إن السيدة دي مونبنسييه مريضة جداً، فقد كان صحيحاً أنه ما أن وضعتها النساء في الفراش حتى أخذتها الحمى بعنف شديد وأحلام يقظة مروعة حتى خافوا على حياتها منذ اليوم الثاني. تظاهر الأمير بالمرض حتى لا يندهش أحد إذا لم يدخل غرفة زوجته. وكان الأمر الذي تلقاه بالعودة إلى البلاط، حيث كان جميع الأمراء الكاثوليك يستدعون لإبادة الهوغونيين قد أخرجه من مأزقه. فذهب إلى باريس، وهو يعلم ما كان يرجوه أو يخشاه من شر زوجته الأميرة. ولم يكد يصل إلى هناك حتى بدأوا بمهاجمة الهوغونيين في شخص أحد زعمائهم وهو الأميرال دي شاتيلون، وبعد يومين نفذوا تلك المذبحة المروعة التي اشتهرت في أوربا كلها. أما الكونت دي شابان المسكين الذي كان قد اختبأ في أقصى إحدى ضواحي باريس ليخلو إلى نفسه كلياً في أحزانه، فقد غمره غم الهوغونيين. وبعد أن عرفه الناس الذين انحاز إليهم وتذكروا أنه كان مشتبهاً في انتمائه إلى ذلك الحزب، ذبحوه في تلك الليلة نفسها التي كانت قاتلة لكثير من الناس. وفي الصباح، مر أمير مونبنسييه وهو في طريقه لإعطاء بعض الأوامر خارج المدينة، بالشارع الذي كانت ترقد فيه جثة شابان. فدهش في بادئ الأمر من المنظر الذي يبعث على الرثاء؛ ثم استيقظت

صداقته وألمه الألم، ولكن ذكرى الإساءة التي ظن أنه لقيها من الكونت أذاقها أخيراً طعم الفرح، وسعد كثيراً إذ رأى نفسه وقد انتقمت له يد القدر. وبعد أن امتلأ الدوق دي غيز بالرغبة في الانتقام لموت أبيه، ثم ما لبث أن امتلأ بعد ذلك بفرح الانتقام، حتى غلبت على عقله الرغبة في معرفة أخبار الأميرة دي مونبنسييه؛ ولما وجد المركيزة دي نويرموتييه ذات الروح العظيمة والجمال والتي كانت تبعث في نفسه أملاً أكثر من هذه الأميرة تعلق بها تعلقاً تاماً وأحبها حباً مفرطاً دام حتى وفاته. غير أنه ما إن بلغ مرض السيدة دي مونبنسييه مرحلته الأخيرة حتى بدأ مرضها يتضاءل.

وعاد إليها رشدها، ووجدت نفسها قد ارتاحت إلى حد ما لغياب الأمير زوجها، وأعطت بعض الأمل في حياتها. غير أن صحتها كانت تعود إليها بصعوبة بالغة، وذلك لسوء حالتها العقلية؛ وعادت صحتها إلى العمل مرة أخرى عندما تذكرت أنها لم تتلق أخبار الدوق دي غيز طوال مرضه. وسألت زوجتيها إن كانتا قد رأتا أحداً، وإن كان لديهما أي رسائل، ولم تجد شيئاً مما كانت تود أن تعرفه، فشعرت بأشد التعاسة في العالم لأنها خاطرت بكل شيء من أجل رجل كان يتخلى عنها. وازداد حزنها عندما علمت بوفاة الكونت دي شابانس، وسرعان ما علمت بذلك من خلال عناية زوجها الأمير. وقد زادها جحود الدوق

دي غيز شعوراً عميقاً بفقدان الرجل الذي كانت تعرف إخلاصه جيداً. وسرعان ما أعادتها هذه الاستياءات الكثيرة الملحة إلى حالة خطيرة كتلك التي خرجت منها. ولما كانت مدام دي نويرموتييه من الأشخاص الذين يحرصون على إظهار شهامتها بقدر ما يحرص غيرهم على إخفائها، فإن شهامة مدام دي غيز ومروءتها كانتا علنيتين إلى درجة أنها مهما كانت الأميرة دي مونبنسييه بعيدة ومريضة فإنها كانت تعلم بهما من جهات كثيرة بحيث لم يكن في وسعها أن تشك فيهما. كانت ضربة مميتة لحياتها. ولم تستطع أن تقاوم ألم فقدها لتقدير زوجها، وقلب حبيبها وأكمل صديق كان لها على الإطلاق. وماتت في أيام قلائل، وهي في زهرة شبابها، وهي من أجمل أميرات العالم، وكانت بلا شك أسعدهن لو أن الفضيلة والحكمة كانتا توجهان كل تصرفاتها.

Alfred de Vigny

(1797-1863)

ألفريد دي فيني

لورييت أو الطّابع الأحمر

من لقاء مررت به ذات يوم على الطريق الرئيسي

الطريق الرئيسي عبر أرتوا وفلاندرز طويل وحزين. إنه يمتد في خط مستقيم، بلا أشجار أو خنادق، عبر ريف منبسط مليء بالطين الأصفر في جميع الأوقات. وفي مارس 1815، مررت في هذا الطريق، وحدث لي لقاء لم أنسه منذ ذلك الحين. كنت وحدي، وكنت على صهوة جواد، وكنت أرتدي معطفاً أبيض جيداً، وحلة حمراء، وخوذة سوداء، ومسدساً وسيفاً كبيراً، وكان المطر ينهمر بغزارة طوال أربعة أيام وأربع ليال من المسير، وأذكر أني كنت أغني الموناليزا بأعلى صوتي. كنت صغيرًا جدًا! - وكان رفاقي في المقدمة على الطريق يتبعون الملك لويس الثامن عشر؛ وكنت أرى معاطفهم البيضاء وملابسهم الحمراء في الأفق إلى الشمال؛ وكان فرسان بونابرت الذين كانوا يراقبون ويتابعون انسحابنا خطوة خطوة، تظهر من وقت لآخر شعلة رماحهم الملونة ثلاثية الألوان في الأفق الآخر. وكان حذاء مفقود قد أخّر فرسي: كان الحصان شاباً قوياً فألححت عليه أن ينضم إلى سربي، فانطلق يهرول بأقصى

سرعة. ووضعت يدي على حزامي الذي كان مملوء بالذهب؛ وسمعت غمد سيفي الحديدي على الركاب، وشعرت بفخر شديد وسعادة تامة. كانت السماء لا تزال تمطر وكنت لا أزال أغني. ولكني ما لبثت أن سكت، فقد مللت من عدم سماع أحد غيري، ولم أسمع إلا المطر وأقدام حصاني تخوض في الأخاديد. كان سطح الطريق المرصوف بالحصى مفقودًا؛ كنت أغرق واضطررت إلى السير بسرعة أكبر. كان حذائي الكبير مغطى من الخارج بقشرة سميكة من الطين الأصفر كالأغر، أما من الداخل فكان مغطى بالمطر. نظرتُ إلى كتافتي الذهبية الجديدة التي كانت تمثل سعادتي وعزائي؛ كانتا مليئتين بالماء، مما أحزنني.

وطأطأ حصاني رأسه، ففعلت كما فعل، وبدأت أفكر، وتساءلت لأول مرة إلى أين أنا ذاهب. لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق، ولكن ذلك لم يشغلني طويلاً: كنت على يقين من أن سربي هناك، وكذلك كان واجبي. وشعرت بهدوء عميق لا يتزعزع في قلبي، فكنت أشكر هذا الإحساس الذي لا يوصف بالواجب، وحاولت أن أفسره لنفسي. ورأيت عن قرب كيف أن تعباً غير مألوف كان يتحمله بمرح أولئك الشقر أو البيض من أصحاب الرؤوس الشقراء أو البيضاء، وكيف أن مستقبلاً آمناً كان يخاطر به كثير من رجال

الحياة السعيدة والدنيا بكل شجاعة، وكيف أن ذلك الرضا العجيب الذي يبعث في نفس كل إنسان الاقتناع بأنه لا يستطيع أن يفلت من ديون الشرف، فهمت أن ذلك كان شيئاً أسهل وأكثر شيوعاً مما قد يظن المرء، ألا وهو نكران الذات. وتساءلت عما إذا لم يكن نكران الذات شعوراً ولد معنا؛ وما هي هذه الحاجة إلى الطاعة ووضع إرادة المرء بين يدي غيره، وكأنها شيء ثقيل وغير مرغوب فيه؛ ومن أين جاءت السعادة السرية في التخلص من هذا العبء، وكيف أن كبرياء الإنسان لا تثور به أبداً. استطعت أن أرى هذه الغريزة الغامضة تربط الشعوب في حزم قوي من كل جانب، ولكن لم يكن هناك مكان يمكن فيه التخلي عن أفعال المرء وأقواله ورغباته وأفكاره تخليا كاملاً وهائلاً كما في الجيوش. لقد رأيت في كل مكان أن المقاومة كانت ممكنة ومعتادة، وأن طاعة المواطن كانت في كل مكان واضحة وذكية، وأنه كان بإمكانه أن يفحص نفسه ويوقفها. ورأيت حتى خضوع المرأة الرقيق ينتهي حيث يبدأ الأمر بالشر، ويتولى القانون الدفاع عنها؛ بل رأيت الطاعة العسكرية السلبية والنشطة في نفس الوقت، تتلقى الأمر وتنفذه، تضرب، مغمضة العينين، كالقدر القديم! لقد تتبعت النتائج المحتملة لهذا الخضوع من الجندية، بدون مقابل، وبدون شروط، وأحياناً يؤدي إلى وظائف شريرة.

كنت أفكر هكذا وأنا أسير بخطى حصاني وأنظر إلى الوقت في ساعتي، وأرى الطريق ممتداً في خط مستقيم، لا شجرة ولا بيت، ويقطع السهل حتى الأفق، كخط أصفر عظيم على قماش رمادي. وأحياناً كان هذا الخط السائل يغسل في الأرض السائلة التي تحيط به، وحينما كان النهار الأقل شحوباً قليلاً يجعل هذا الامتداد الحزين من البلاد يلمع في هذا السهل، رأيت نفسي وسط بحر موحل، أتبع تياراً من الطين والجص. وبينما كنت أتفحص الخط الأصفر للطريق بعناية، لاحظت على بعد ربع فرسخ تقريباً نقطة سوداء صغيرة تمشي على طول الطريق. أسعدني ذلك، لقد كان شخصاً ما. لم أنظر بعيداً مرة أخرى. لاحظت أن هذه النقطة السوداء كانت تسير في نفس الاتجاه الذي كنت أسير فيه، باتجاه مدينة ليل، وأنها كانت تسير بشكل متعرج، مما يعني أن السير سيكون شاقاً. فأسرعتُ من سرعتي وتقدمت على هذا الجسم الذي كان يطول قليلاً ويزداد حجمه كلما اقتربت منه. استأنفتُ هرولتي على أرض أكثر ثباتاً وظننت أنني تعرفت على سيارة سوداء صغيرة نوعاً ما. كنت جائعاً، وتمنيت أن تكون عربة سيدة مقصف، واعتبرت حصاني المسكين زورقاً فحملته على أن يجدف بقوة ليصل إلى هذه الجزيرة المحظوظة، في هذا البحر حيث يغرق أحياناً حتى بطنه. وعلى بعد مائة خطوة تقريباً، استطعت أن أتبين

بوضوح عربة خشبية صغيرة بيضاء مغطاة بثلاث دوائر وقماش زيتي أسود. بدت وكأنها مهد صغير على عجلتين. كانت العجلات متوقفة حتى المحور؛ وكان بغل صغير يجرها ويقودها رجل يمسك بلجامه بمشقة. صعدت ونظرت إليه بعناية. كان رجلاً في نحو الخمسين من عمره، أبيض الشاربين، قوي القامة طويلها، مقوس الظهر على طريقة ضباط المشاة القدامى الذين حملوا الكيس. كان يرتدي زياً عسكرياً، وتبدو عليه لمحة من كتاف قائد كتيبة تحت معطف أزرق قصير مهترئ. كان وجهه متصلباً لكنه كان جيداً، مثل الكثيرين في الجيش. نظر إليّ نظرة جانبية من تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين، ثم سحب بندقية من عربته التي كان يحملها وأطلقها وهو يعبر إلى الجانب الآخر من بغلته التي كان يستخدمها كساتر. وبعد أن رأيتُ رداءه الأبيض، أشرت ببساطة إلى كُمّ بدلتي الحمراء، فأعاد بندقيته إلى العربة قائلاً:

- هذا مختلف، ظننتك أحد تلك الأرانب التي تركض خلفنا. هل تريد قطرة؟

- قلت وأنا أقترب منه: (أود ذلك) (لقد مرت أربع وعشرون ساعة منذ أن شربت). وكان حول رقبته جوزة هند، منحوتة نحتاً جيداً، ومرتبة كالقارورة ذات عنق فضي، وبدا أنه يستمد منها قدراً لا بأس به من الزهو. فناولني إياها،

فشربت قليلاً من النبيذ الأبيض الرديء بسرور عظيم، وأعدت إليه جوزة الهند.

- وقد جعلني ضابطاً في جوقة الشرف، وقد كان من العدل أن أتبعه إلى الحدود. وبما أنني لا أملك سوى كتافي، فسأعود إلى كتيبتي بعد ذلك، فهذا واجبي. وتحدث إلي كما لو كان يتحدث إلى نفسه، ثم حرك بغلته الصغيرة مرة أخرى قائلاً إنه ليس لدينا وقت نضيعه؛ ولما كنت أوافقه الرأي انطلقت مرة أخرى خلفه بخطوتين. كنت أنظر إليه دائماً دون أن أسأله أي سؤال، لم أكن أحب أبداً تلك الطيش الثرثارة، الشائعة بيننا. ومضينا دون أن ننبس ببنت شفة لحوالي ربع فرسخ. وبينما كان يتوقف ليترك بغلته الصغيرة المسكينة تستريح، وكان منظرها يندى له الجبين، توقفت أنا أيضاً وحاولت أن أعبر عن الماء الذي ملأ حذائي للراحلة، وكأنه خزانان حيث كانت ساقاي قد ابتلتا.

- قال: لقد بدأ حذائك يلتصق بقدميك.

- قلتُ: "لم أتركهما منذ أربع ليالٍ".

- وواصل بصوته الأجش: "بعد أسبوع لن تفكر في ذلك بعد الآن"، وتابع: "إنه شيء أن تكون وحيداً، هيا، في مثل هذه الأوقات. هل تعرف ماذا لدي هنا؟

- لا".

- إنها امرأة.

قلت: - آه! - دون كثير من الدهشة، وانطلقت مرة أخرى في هدوء، في هدوء، في سير. وتبعني هو.

- ولم تكلفني تلك العربة الرديئة الكثير، ولم يكلفني البغل أيضاً؛ ولكن هذا كل ما أحتاج إليه، وإن كان الطريق طويلاً بعض الشيء. وعرضت عليه أن أركبه على جوادي عندما يتعب؛ ولما لم يكن من حديثي معه إلا أن أتحدث إليه في وقار وبساطة عن معداته التي كان يخشى أن تكون سخيفة، فقد استراح فجأة واقترب من ركابي وضربني على ركبتي وقال:

- حسناً، أنت فتى طيب، على الرغم من أنك في الفريق الأحمر. وأحسست في لهجته المريرة، وهو يشير إلى السرايا الحمر الأربع، كم من الإجحاف البغيض الذي كان يبعثه ترف هذا الفيلق من الضباط في الجيش.

- ولكنني لن أقبل عرضك، لأنني لا أعرف كيف أركب الخيل وليس من شأني أن أركب الخيل.

- ولكن، أيها القائد، إن كبار الضباط أمثالك ملزمون بذلك.

- باه! مرة واحدة في السنة، في التفتيش، ولا تزال على حصان مستأجر. لقد كنت دائماً بحاراً، ومنذ ذلك الحين جندياً في سلاح المشاة؛ أنا لا أعرف شيئاً عن ركوب الخيل. وخطا عشرين خطوة وهو ينظر إليّ من حين إلى آخر، وكأنه ينتظر مني سؤالاً؛ ولما لم يحصل على كلمة واحدة تابع كلامه:

- أنت لست فضولياً، على سبيل المثال! ما أقوله يجب أن يفاجئك.

- قلت: لست مندهشًا على الإطلاق.

- لكن إذا أخبرتك كيف غادرت البحر، سنرى.

- حسناً، قلت: "لمَ لا تجربها؟ ستشعرك بالدفء، وستجعلني أنسى أن المطر ينهمر على ظهري ولا يتوقف إلا عند كعبي. تهيأ قائد الكتيبة الطيب للكلام بسرور طفولي. وأعاد تعديل الشاكو[2] المغطى بالزيت على رأسه، ونقر على كتفه تلك النقرة التي لا يمكن لأحد أن يتخيلها إلا إذا كان قد خدم

[2] نشأت كلمة شاكو من الاسم المجري للذروة والذي أضافه جنود الحدود المجريون حوالي عام 1790 الى قبعاتهم ذات الطراز الأنبوبي.. كلمة قديمة.

في سلاح المشاة، تلك النقرة التي ينقر بها جندي المشاة في الكتيبة على كتفه ليرفعها ويخفف ثقلها للحظة، إنها عادة الجندي التي تصبح عادة عندما يصبح ضابطاً. وبعد هذه الحركة المتشنجة شرب قليلاً من النبيذ من جوزة الهند، وأعطى البغل الصغير ركلة مشجعة في معدته، ثم بدأ..

قصة الختم الأحمر

- ستعرفين يا طفلتي أولاً أنني ولدت في بريست؛ وقد بدأت طفلاً جندياً صغيراً أكسب نصف حصتي ونصف قرضي منذ سن التاسعة، وكان أبي جندياً في الحرس. ولكن لأني كنت أحب البحر، فقد اختبأت ذات ليلة من ليالي الإجازة في بريست في عنبر سفينة تجارية متجهة إلى الهند، ولم يرني أحد في عرض البحر إلا القبطان الذي فضل أن يجعلني صبي السفينة على أن يلقيني في الماء. وبحلول وقت الثورة، كنت قد قطعت شوطاً طويلاً، وأصبحت بدوري قبطاناً لسفينة تجارية صغيرة ونظيفة إلى حد ما، بعد أن جبت البحار لمدة طويلة. وبما أن البحرية الملكية السابقة - وهي بحرية قديمة جيدة، يا إلهي! - وجدت نفسها فجأة خالية من الضباط، فقد تم أخذ القباطنة من البحرية التجارية. وقد كانت لي بعض علاقات اللصوصية الحرة التي يمكنني أن أخبركم عنها فيما بعد: فقد أُسندت إليّ قيادة سفينة حربية اسمها لو مارات. وفي 28 فراكتيدور[3] 1797، تلقيت أوامر بالإبحار إلى

[3] شهر فركتيدور هو الشهر الثاني عشر والأخير من التقويم الجمهوري، ويوافق الفترة من 18 أغسطس إلى 16 سبتمبر، بزيادة أو نقصان بضعة أيام (حسب السنة). التقويم الجمهوري، أو التقويم الثوري

كايين. وكان من المقرر أن آخذ معي ستين جندياً ومرحلاً واحداً ممن تبقوا من المائة وثلاثة وتسعين الذين أخذتهم الفرقاطة لا ديكاد قبل ذلك بأيام قليلة. وقد أمرت أن أتعامل مع هذا الفرد بحذر، وكانت الرسالة الأولى من المديرية تحتوي على رسالة ثانية مختومة بثلاثة أختام حمراء وفي وسطها ختم كبير الحجم. وكان ممنوعاً عليّ أن أفتح هذه الرسالة قبل الدرجة الأولى من خط العرض شمالاً، من خط الطول 27° إلى خط الطول 28°، أي قريباً من عبور الخط. كان لهذا الخطاب الكبير شكل خاص جداً. فقد كان طويلاً ومغلقاً بإحكام لدرجة أنني لم أتمكن من قراءة أي شيء بين الزوايا أو من خلال الظرف. أنا لا أؤمن بالخرافات، لكن هذه الرسالة أخافتني. وضعته في غرفتي، تحت زجاج ساعة إنكليزية صغيرة سيئة مثبتة فوق سريري. كان ذلك السرير سرير بحار حقيقي، كما تعلمون. ولكنني لا أدري ماذا أقول: أنت لم تتجاوز السادسة عشرة، ولا يمكن أن تكون قد رأيت ذلك.

لا يمكن لغرفة نوم الملكة أن تكون مرتبة كغرفة نوم البحارة، دون الرغبة في التباهي. كل شيء له مكانه الصغير ومسماره الصغير. لا شيء يتحرك.

الفرنسي، هو تقويم تم إنشاؤه أثناء الثورة الفرنسية واستُخدم خلال الجمهورية الأولى ثم الإمبراطورية حتى عام 1806,

يمكن للمبنى أن يتدحرج كما يشاء دون أن يزعج أي شيء. الأثاث مصنوع حسب شكل السفينة والغرفة الصغيرة التي لدينا. كان سريري عبارة عن صندوق. عندما كان مفتوحاً كنت أنام فيه؛ وعندما كان مغلقاً كان أريكتي وكنت أدخن فيه غليوني. وأحياناً كانت مائدتي، فكنت أجلس على برميلين صغيرين كانا في الغرفة. وكانت أرضيتي الخشبية مشمعة ومفركّة مثل خشب الماهوجني، ولامعة مثل الجوهرة: مرآة حقيقية! كانت غرفة صغيرة جميلة! وكان للبرج ثمنه أيضاً. وكثيراً ما كنا نحظى بالكثير من المتعة هناك، وهذه المرة بدأت الرحلة بشكل لطيف بما فيه الكفاية، و إن لم تكن كذلك... ولكن دعونا لا نستبق الأحداث. هبت علينا رياح شمالية غربية جميلة، وكنت مشغولاً بوضع هذه الرسالة تحت زجاج ساعتي، عندما دخل عليَّ مودعي إلى غرفتي؛ وكان يمسك بيد فتاة صغيرة جميلة في نحو السابعة عشرة من عمرها. وأخبرني أنه في التاسعة عشرة من عمره؛ وكان فتى وسيماً، و إن كان شاحباً بعض الشيء، وأبيض أكثر من أن يكون رجلاً. غير أنه كان رجلاً، وقد أحسن التصرف في هذه المناسبة أكثر مما كان كثير من القدماء يفعلون: سترون. وكانت زوجته الصغيرة تحت ذراعه، وكانت نضرة ومرحة كطفل صغير. كانا يبدوان كطائري حب. كنت مسروراً لرؤية ذلك. قلت لهما:

حسناً، يا ولداي، لقد جئتما لزيارة القبطان العجوز؛ هذا لطف منكما. سآخذكما إلى مكان بعيد بعض الشيء، ولكن هذا جيد، سيكون لدينا الوقت لنتعرف على بعضنا البعض. أنا آسف لرؤية السيدة بدون حلتي، ولكني سأقوم بتسمير هذه الرسالة الكبيرة الوغدة هل تودين مساعدتي قليلاً؟ لقد كانوا حقاً أطفالاً صغاراً طيبين فأخذ الزوج الصغير المطرقة والزوجة الصغيرة المسامير، وناولانيها وأنا أطلبها، فقالت لي: يميناً! يساراً! كابتن! ضاحكة لأن الرمي جعل ساعتي تتأرجح. وما زلتُ أسمعها من هنا بصوتها الخافت: يساراً، يميناً، كابتن! كانت تضحك مني.

- آه، أقول، أيتها الفتاة الشقية! سأجعل زوجك يوبخك، هيا. ثم قفزت على رقبته وقبلته. كانا شخصين لطيفين حقاً، وهكذا تعرفنا على بعضنا البعض. أصبحنا أصدقاء جيدين على الفور. كان أيضًا تقاطعًا لطيفًا. كان لدي دائماً وقت فراغ. وبما أنه لم يكن لديّ أي شيء سوى الوجوه السوداء على متن السفينة، فقد كان يأتي إليّ صديقاي الصغيران كل يوم. كان ذلك يبهجني. وعندما كنا نأكل البسكويت والسمك، كانت المرأة الصغيرة وزوجها ينظران إلى بعضهما البعض وكأنهما لم يريا بعضهما البعض من قبل. ثم كنت أضحك من قلبي وأسخر منهما. كانا يضحكان معي أيضًا.

كنتم ستضحكون لرؤيتنا مثل ثلاثة حمقى، لا نعرف ما لدينا. كان من الممتع حقًا أن نراهم يحبون بعضهم البعض هكذا. لقد شعروا بالارتياح في كل مكان؛ لقد أحبوا كل ما قدمناه لهم. ولم أكن أضيف إليهما سوى القليل من البراندي السويدي عندما كانا يتعشيان معي، ولكن كأساً صغيرة فقط لأحافظ على رتبتي. وكانا ينامان في أرجوحة شبكية حيث كانت السفينة تدحرجهما مثل هاتين الإجاصتين اللتين أضعهما هنا في منديلي المبلل. كانا يقظين وسعيدين. فعلت كما تفعل أنت، لم أسأل أسئلة. ما حاجتي أنا، عبّارة الماء، لمعرفة اسميهما وشأنهما؟ حملتهما عبر البحر، كما كنت أحمل طائرين من طيور الجنة. بعد شهر، أصبحت أراهم كأولادي. كل يوم، عندما كنت أناديهما، كانا يأتيان ويجلسان بجانبي. وكان الشاب يكتب على طاولتي، أي على سريري؛ وكان يساعدني في التعبير عن وجهة نظري عندما أريد: وسرعان ما كان يعرف كيف يفعل ذلك كما أعرفه أنا؛ وكنت أحياناً لا أستطيع الكلام. وكانت المرأة الصغيرة تجلس على برميل صغير وتبدأ في الخياطة. وفي يوم من الأيام وهما جالسان هكذا، قلت لهما: "هل تعرفان يا صديقيّ الصغيرين أننا نقوم بعمل صورة عائلية كما نحن؟ لا أريد أن أشكك فيكما، ولكن من المحتمل أنكما لا تملكان مالاً أكثر من حاجتكما، وأنكما

رقيقان جداً لتحفرا وتحفران كما يفعل المرحلون في كايين. إنها بلاد قبيحة، كما أقول لك من كل قلبي؛ ولكني أنا، أنا الذي هو جلد ذئب عجوز جفته الشمس، أود أن أعيش هناك كالأسياد. لو كان لديك، كما يبدو لي (دون أن أرغب في أن أشكك في ذلك)، ولو القليل من الصداقة لي، لكنت على استعداد تام لترك سفينتي القديمة، التي أصبحت الآن مجرد قبقاب، وسأستقر معك، إذا كان ذلك يناسبك. ليس لديّ عائلة أكثر من كلب، وهذا يشعرني بالملل؛ ستجعلينني أرتاح قليلاً. سأساعدك في كثير من الأمور، وقد جمعتُ لكِ الكثير من الأشياء، وقد جمعتُ لكِ مبلغاً لا بأس به من الممنوعات الشريفة إلى حد ما، يمكننا أن نعيش عليه، وسأتركه لكِ عندما أغمز لكِ كما يقولون بأدب.

حدق كل منهما في الآخر في دهشة، وبدا لي أنهما كانا يعتقدان أنني لم أكن أقول الحقيقة؛ وركضت الفتاة الصغيرة كما كانت تفعل دائماً لتلقي بنفسها حول عنقه وتجلس على ركبته وهي محمرّة الوجه وتبكي. عانقها بقوة، ورأيت الدموع في عينيه أيضًا. مدّ يده إليّ وقد أصبح شاحباً أكثر من المعتاد. وكانت تتكلم معه بصوت منخفض، وكان شعرها الأشقر الكبير منسدلاً على كتفها وقد انسدلت كعكة شعرها كالسلك الذي ينحل فجأة، وكانت مفعمة بالحيوية

كالسمكة: لو رأيت شعرها! وظلا يتحدثان في هدوء، والشاب يقبل جبينها بين الحين والحين وهي تبكي، فنفد صبري.

- قلت لهما في النهاية: حسناً، هل أعجبتكما؟

- قال الزوج: (ولكن.. . ولكن يا كابتن، أنت طيب جداً) كل ما في الأمر أنك لا تستطيع العيش مع المبعدين، و.. . لقد أخفض عينيه.

- قلت: "لا أعرف ما الذي فعلته حتى يتم ترحيلك، ولكنك ستخبرني يوماً ما، أو لا تخبرني على الإطلاق، إذا أردت. لا يبدو لي أن ضميرك ثقيل جداً، وأنا متأكد تماماً أنني فعلت أكثر مما فعلت في حياتي، هيا أيها المسكين البريء. على سبيل المثال، ما دمت في عهدتي فلن أتركك ترحل، لا يجب أن تتوقع ذلك؛ أفضل أن أقطع رقبتك مثل الحمامتين. لكن بمجرد أن تختفي الكتاف، لا أعرف أي أميرال أو أي شيء.

- كل ما في الأمر"، وتابع وهو يهز رأسه الأسمر بحزن، وإن كان قد وضع عليه القليل من البودرة كما كانت العادة في تلك الأيام، "أعتقد أنه سيكون من الخطر عليك أيها القبطان أن تبدو وكأنك تعرفنا. إننا نضحك لأننا شباب، ونبدو سعداء لأننا نحب بعضنا بعضاً؛ ولكني تنتابني لحظات سيئة عندما

أفكر في المستقبل، ولا أدري ماذا سيحل بلوري المسكينة. هذا ما اضطررت أن أقوله للقبطان؛ ألم تكن لتقولي نفس الشيء يا طفلتي؟

أخذت غليوني ونهضت، لأن عينيّ بدأتا تبتلان، وهذا لا يناسبني.

- قلتُ: "هيا، هيا، سيصفو الجو بعد ذلك. إذا كان التدخين يزعج السيدة، فغيابها ضروري. فنهضت ووجهها متوهج ومبلل بالدموع، مثل طفل تم توبيخه.

- ثم قالت وهي تنظر إلى ساعتي: إنكم أيها الناس لا تفكرون في الأمر: والرسالة! شعرتُ بشيء كان له تأثير في نفسي. جعل شعري يقف على نهايته.

- أوه يا عزيزي، لقد نسيت كل شيء عن ذلك". آه، هذا شيء جميل! إذا كنا قد تجاوزنا الدرجة الأولى من خط العرض الشمالي، كل ما كان عليّ فعله هو القفز في الماء.

- لا بد أنني كنت محظوظاً لأن ذلك الطفل ذكّرني بالرسالة الوغد العظيم! نظرت بسرعة إلى الخريطة البحرية، وعندما رأيت أنه لا يزال أمامنا أسبوع آخر على الأقل لنقطعه، ارتاح رأسي ولكن ليس قلبي، ولا أعرف لماذا.

- كل ما في الأمر أن المدير لا يعبث عندما يتعلق الأمر بالطاعة! هيا، أنا أعرف كل شيء هذه المرة أيضًا. لقد مر الوقت بسرعة كبيرة لدرجة أنني نسيت كل شيء عن ذلك. حسناً يا سيدي، لقد وقفنا نحن الثلاثة رافعين أنوفنا في الهواء ننظر إلى الرسالة وكأنها ستخاطبنا. وكان أكثر ما أدهشني أن الشمس، وهي تنزلق من خلال الكوة التي كانت تنزلق من خلال السقف، كانت تسطع على زجاج الساعة فتجعل الختم الأحمر الكبير والأخرى الصغيرة تبدو كملامح وجه في وسط النار.

- ألا يبدو وكأن عينيه تخرجان من رأسه؟

- قالت المرأة الشابة: "أوه يا صديقي"، "إنهما تبدوان كبقع الدم.

- قال زوجها وهو يأخذها تحت ذراعه: "أنتِ مخطئة يا لور، إنها تبدو كإعلان زفاف. تعالي واستريحي، تعالي؛ لماذا أنتِ مشغولة جداً بهذه الرسالة؟

وهربوا وكأن شبحاً تبعهم وصعدوا إلى سطح السفينة. وبقيت وحدي مع هذه الرسالة الكبيرة، وأذكر أني وأنا أدخن غليوني ظللت أنظر إليها وكأن عينيها الحمراوين قد انطبقتا على عينيّ، تشمّانها كعيون الأفاعي. وجهها الكبير الشاحب، ختمها الثالث، أكبر من عينيها، مفتوحة على مصراعيها، فاغرة فاها كفم الذئب... لقد جعلني ذلك في مزاج سيئ؛ فأخذت حلتي وعلقتها

على الساعة حتى لا أرى الوقت ولا عاهرة الرسالة. ذهبت لأنهي غليوني على سطح السفينة. وبقيت هناك حتى حلول الظلام. كنا حينها في مستوى جزر الرأس الأخضر. كانت المارات تسير بسرعة عشرة عقد والرياح في مؤخرتها. كانت أجمل ليلة رأيتها في حياتي بالقرب من المناطق الاستوائية. كان القمر يسطع في الأفق، عريضاً كالشمس، والبحر يقطعه إلى نصفين ويصبح أبيض كصفائح الثلج المغطاة بمائة ماسة صغيرة. جلست على مقعدي أدخن وأنا أشاهد كل هذا. لم ينبس ضابط الحراسة والبحارة ببنت شفة ولم ينطقوا بشيء، وكانوا يراقبون ظل البارجة على الماء كما كنت أفعل. كنت سعيداً بعدم سماع أي شيء. فأنا أحب الصمت والنظام. كنت قد منعت كل الضوضاء وكل الأضواء. ومع ذلك، لمحتُ خطًا أحمر صغيرًا تحت قدمي تقريبًا. كنت أود أن أغضب على الفور، لكن بما أنه كان مكان مبعدي الصغير، أردت أن أعرف ماذا يفعلون قبل أن أغضب. كل ما كان عليّ فعله هو الانحناء والنظر من خلال اللوحة الكبيرة إلى الغرفة الصغيرة. كانت الشابة جاثية على ركبتيها تتلو صلاتها. كان هناك مصباح صغير يضيء عليها. كانت ترتدي قميصًا؛ ومن الأعلى استطعت أن أرى كتفيها العاريتين،

وقدميها الصغيرتين، وشعرها الأشقر الكبير المنسدل. فكرت في الاعتزال، لكني قلت في نفسي: "باه! ما فائدة الجندي العجوز؟ وبقيت للمشاهدة. كان زوجها جالسًا على جذع صغير، ورأسه على يديه، يراقبها وهي تصلي. فرفعت رأسها كأنها ترفعها إلى السماء، ورأيت عينيها الزرقاوين الكبيرتين الزرقاوين مبللتين كعيني المجدلية. وبينما كانت تصلي أخذ بأطراف شعرها الطويل وقبَّلها دون أن يصدر صوتاً. وعندما انتهت رسمت إشارة الصليب وهي تبتسم وكأنها ذاهبة إلى السماء. رأيتُ أنه كان يرسم إشارة الصليب مثلها، ولكن كما لو كان خجولاً من ذلك. بالمناسبة، هذا غريب بالنسبة لرجل. فنهضت وقبلته وكانت أول من استلقى في أرجوحة حيث ألقى بها دون أن ينبس ببنت شفة كطفل على أرجوحة. وكان الجو حاراً خانقاً: وكانت حركة السفينة تهدهدها للنوم ويبدو أنها بدأت تغفو بالفعل. كانت قدماها الصغيرتين متقاطعتين ومرتفعتين إلى مستوى رأسها، وكان جسدها كله ملفوفاً بقميصها الأبيض الطويل. كم كانت لطيفة!

- قالت وهي نصف نائمة يا صديقي: "ألا تشعر بالنعاس؟ لقد تأخر الوقت، كما تعلم؟ وظل واضعاً جبهته على يديه دون أن يجيب. فأقلقها ذلك قليلاً، تلك الفتاة الصغيرة الطيبة وأخرجت رأسها الجميل من الأرجوحة كما يخرج

العصفور من عشه، ونظرت إليه وفمها نصف مفتوح، ولم تجرؤ على الكلام أكثر من ذلك. وفي النهاية قال لها:

ــ عزيزتي لور، بينما نحن نتحرك نحو أمريكا، لا يسعني إلا أن أشعر بالحزن. لا أعرف لماذا، يبدو لي أن أسعد أوقات حياتنا كان العبور.

- قالت: "يبدو لي أيضاً أنني أتمنى لو أنني لم أصل أبداً". ونظر إليها وهو يشبك يديه ببعضهما البعض في انتقال لا يمكنك أن تتخيله.

- ولكنك يا ملاكي، ما زلت تبكين وأنت تتضرعين إلى الله؛ وهذا يحزنني كثيراً، لأني أعرف جيداً فيمن تفكرين وأظنك نادمة على ما فعلت.

- " قالت بتعبير متألم: "أنا آسفة!" لأني تبعتك يا صديقي! هل تظن أن انتمائي لكِ قليل جدًّا؛ هل تظن أنني أحببتك حبًّا أقل؟ أنا لست امرأة، ولا يمكن أن أعرف واجباتي كلها في السابعة عشرة من عمري. ألم تقل أمي وأخواتي أن من واجبي أن أتبعك إلى غيانا؟ ألم يقولوا أنني لم أفعل شيئًا مفاجئًا هناك؟ أنا مندهشة فقط لأنك تأثرت بذلك يا صديقي؛ كل هذا طبيعي. والآن لا أدري كيف يمكنك أن تصدق أنني غير نادمة على شيء وأنا معك لأساعدك على الحياة، أو لأموت معك إذا مت. قالت كل هذا بصوت ناعم جداً بدا وكأنه موسيقى. فتأثرت تأثراً شديداً وقلت:

ــ يا لها من امرأة صغيرة طيبة! فتنهد الشاب وهو يدوس بقدمه ويقبل اليد الجميلة والذراع العارية التي كانت تمدها إليه.

- قال: آه يا لوريت، يا لوريت، يا لوريت، عندما أفكر في أننا لو تأخرنا في زفافنا أربعة أيام لألقي القبض عليّ وتركت وحدي، لا أستطيع أن أسامح نفسي. ثم مالت الفتاة الصغيرة الجميلة على ذراعيها البيضاء الجميلة العاريتين حتى المنكبين، خارجة من الأرجوحة وراحت تداعب جبينه وشعره وعينيه، وأخذت رأسه كأنما تحمله وتخبئه في صدرها. وكانت تبتسم كالأطفال، وتقول له كلاماً أنثوياً صغيراً لم أسمع مثله من قبل. وأغلقت فمه بأصابعها لتتحدث إلى نفسها. وقالت مستهترة وهي تستعمل شعرها الطويل كمنديل تمسح به عينيها:

ــ أليس هذا أجمل ما سمعت في حياتي؟

- أليس من الأفضل أن يكون لديك امرأة تحبك يا صديقي؟ أنا سعيد جداً بذهابي إلى كايين؛ سأرى بعض أشجار جوز الهند المتوحشة مثل أشجار بول وفرجيني، أليس كذلك؟ كل منا سيزرع شجرته الخاصة سنرى من هو أفضل بستاني. سنبني كوخاً صغيراً لنا نحن الاثنين سأعمل طوال النهار وطوال الليل، إذا أردتِ ذلك أنا قوي، انظري إلى ذراعيّ.

- يمكنني أن أرفعك تقريباً. لا تسخري مني، فأنا أجيد التطريز بشكل جيد، أليست هناك بلدة في مكان ما هنا تحتاج إلى مطرزات؟ سأعطيك دروساً في الرسم والموسيقى إذا أردت؛ وإذا كانوا يستطيعون الكتابة، فيمكنك أن تكتبي. أذكر أن الصبي المسكين كان يائساً جداً لدرجة أنه بكى بكاءً شديداً عندما قالت ذلك.

- اكتب!

- صرخ، اكتب! وبِيَدِهِ الْيُمْنَى وبِيَدِهِ الْيُسْرَى ضَغَطَ عَلَى مَعْصِمِهَا. - آه، أن أكتب! لماذا لم أعرف أبداً كيف أكتب! الكتابة هي وظيفة المجانين!

- لقد آمنت بحرية الصحافة!

- أين كان عقلي؟ من أجل ماذا؟ من أجل أن أطبع خمس أو ست أفكار رديئة متواضعة، لا يقرأها إلا من يحبها، ويلقيها في النار من يكرهها، ولا تخدم أي غرض سوى أن نضطهد! هذا يكفي عني؛ أما أنتِ أيتها الملاك الجميلة، فلم يمضِ على وجودك في الحياة سوى أربعة أيام! ماذا كنتِ تفعلين؟ اشرحي لي، من فضلك، كيف سمحت لكِ أن تكوني بهذه الطيبة لتتبعيني إلى هنا؟ هل تعرفين حتى أين أنتِ أيتها المسكينة؟ وإلى أين أنتِ ذاهبة، هل تعرفين؟

قريباً يا طفلتي ستبتعدين عن أمك وأخواتك ستمائة فرسخ... وكل ذلك من أجلي!

وخبأت رأسها للحظة في الأرجوحة، وكنت أرى من فوقها أنها تبكي، ولكنه لم يستطع أن يرى وجهها من أسفل، وعندما أخرجته من القماش ابتسمت لتبهجه.

- قالت ضاحكة بصوت عالٍ: (بالمناسبة، نحن لسنا أغنياء الآن) قالت وهي تضحك بصوت عالٍ: (انظر إلى حقيبتي، لم يبق معي سوى لوي واحد. ماذا لديك أنت؟

ضحك كالأطفال أيضًا: - حسناً، كان لا يزال معي لوي واحد ولكني أعطيته للصبي الصغير الذي كان يحمل حقيبتك.

- قالت وهي تطقطق بأصابعها البيضاء الصغيرة: (آه، باه! وما علاقة هذا بالأمر؟) ؛ ألم أحصل على خاتمين من الماس أهدتنيهما أمي؟ هذا جيد في كل مكان ولكل شيء، أليس كذلك؟ سنبيعهما وقتما تشاء إلى جانب ذلك، لا أظن أن القبطان الطيب يقول كل نواياه الطيبة لنا، وأنه يعرف ما في الرسالة. من المحتمل أن تكون توصية لنا إلى حاكم كايين.

- ربما،" قال، "من يدري؟

- أنت جيد جداً لدرجة أنني متأكدة من أن الحكومة قد نفتك لبعض الوقت، ولكنها لا تحمل ذلك ضدك. لقد قالت ذلك على نحو جيد جداً!" ووصفتني بالرجل الطيب؛ وقد تأثرت بذلك؛ بل لقد ابتهجت في قلبي أنها ربما كانت قد أصابت في تخمينها بشأن الرسالة المختومة. وكانا لا يزالان يتبادلان القبلات؛ فركلت بقدمي بقوة على سطح السفينة لأجعلهما ينتهيان. صرخت بهما.

- قولوا يا أصدقائي الصغار لدينا أوامر بإطفاء كل الحرائق في المبنى أطفئوا المصباح من فضلكم. أطفأوا المصباح، وسمعتهم يضحكون، ويتحدثون بهدوء في الظل مثل تلاميذ المدارس. عدت إلى المشي وحدي في ليلي أدخن غليوني. كانت كل نجوم المناطق الاستوائية في مواقعها، كبيرة كالأقمار الصغيرة. نظرت إليها واستنشقت الهواء المنعش الطيب الرائحة. قلت في نفسي أن هؤلاء الرفاق الصغار الطيبين قد خمنوا الحقيقة بالتأكيد، وكنت مبتهجاً. وكان من المؤكد أن أحد المديرين الخمسة قد غير رأيه وأوصاني بهم؛ ولم أستطع أن أفسر السبب تماماً، لأن هناك من شؤون الدولة ما لم أفهمه أنا نفسي؛ ولكني في النهاية صدقت ذلك، ودون أن أعرف السبب كنت سعيداً. نزلتُ إلى غرفتي ونظرتُ إلى الرسالة تحت زيي القديم.

فبدا لي الأمر مختلفاً؛ وبدا لي أنها كانت تضحك، وبدا لي أن طوابعها بلون الورود. لم أعد أشك في لطفها وألقيت عليها تحية ودية. وعلى الرغم من ذلك، أعدت ارتداء زيي الرسمي، فقد كانت تزعجني. ولم نفكر لبضعة أيام في النظر إليها مطلقاً، وكنا مبتهجين؛ ولكننا لما اقتربنا من الدرجة الأولى من درجات الانقطاع، بدأنا لا نتحدث عنها بعد ذلك.

استيقظت ذات صباح مندهشًا من عدم شعوري بأي حركة في المبنى. والحق أنني لا أنام إلا بعين واحدة مفتوحة كما يقولون، وبما أنني كنت أفتقر إلى اللفافة فقد فتحت كلتا العينين. كنا قد وقعنا في هدوء تام، وكانت درجة الحرارة أقل من خط عرض 1 درجة شمالاً، عند خط طول 27 درجة. وضعت أنفي على سطح السفينة: كان البحر أملس كوعاء من الزيت، وكانت جميع الأشرعة المفتوحة ملتصقة بالصواري كالبالونات الفارغة. قلت على الفور:

- سيكون لديّ وقت لقراءتك، امضِ! نظرتُ إلى جانب الرسالة. انتظرت حتى غروب الشمس. ولكن كان لا بد من ذلك: فتحت الساعة وسرعان ما استخرجت الأمر المختوم.

- حسناً، يا عزيزي، لقد ظللت ممسكاً به في يدي ربع ساعة ولم أستطع قراءته بعد. وأخيراً قلت في نفسي:

- هذا قوي جداً! وفضضت الأختام الثلاثة بنقرة من إبهامي؛ وطحنت الختم الأحمر الكبير حتى تحول إلى غبار. بعد القراءة، فركت عينيّ معتقدًا أنني ارتكبت خطأ. أعدت قراءة الرسالة كاملة؛ وأعدت قراءتها مرة أخرى؛ وبدأت من جديد، وبدأت من السطر الأخير وعدت إلى الأول. لم أستطع تصديق ذلك. ارتعشت قدماي قليلاً تحتي، وجلست؛ وانتابتني رعشة معينة على بشرة وجهي؛ وفركت وجنتيّ قليلاً بالشراب؛ ووضعت بعضه في جوف يدي؛ وشعرت بالأسف على نفسي لأنني كنت غبياً جداً؛ ولكن الأمر لم يستغرق سوى لحظة؛ وصعدت إلى الطابق العلوي لأستنشق بعض الهواء النقي. كانت لوريت جميلة جداً في ذلك اليوم إلى درجة أنني لم أشأ أن أقترب منها: كانت ترتدي ثوباً أبيض صغيراً بسيطاً، وكان ذراعاها عاريتين حتى ياقتها وشعرها الكبير منسدلاً كما كانت تسرحه دائماً. كانت تتسلى بغمس ثوبها الآخر في نهاية حبل في البحر، وتضحك وهي تحاول أن توقف الأعشاب البحرية، وهي نباتات بحرية تشبه عناقيد العنب، تطفو على مياه المناطق الاستوائية.

- وصاحت، وانحنى صديقها فوقها منحنياً ولم ينظر إلى الماء لأنه كان ينظر إليها بنظرة فيها مودة عميقة، ثم قال لها: (تعالي انظري إلى العنب! تعالي

انظري إلى العنب!) فأشارت إلى هذا الشاب أن يأتي ويتحدث معي على سطح السفينة. التفتت إليّ. لا أدري كيف كان شكلي، ولكنها ألقت حبلها وأمسكته من ذراعه بعنف وقالت:

- لا تذهب، إنه شاحب جداً. كان يمكن أن يكون كذلك، فقد كان هناك الكثير من الشحوب. ومع ذلك فقد اقترب مني على سطح السفينة، وكانت تنظر إلينا وهي مستندة إلى الصاري الرئيسي. مشينا ذهاباً و إياباً لفترة طويلة دون أن نتفوه بكلمة. دخنت سيجارة وجدتها مرّة وبصقتها في الماء. وتبعني بعينيه، فأخذت بذراعه: لقد كنت أختنق، كلمة شرف، لقد كنت أختنق.

- قلت له أخيراً، أخبرني يا صديقي الصغير، أخبرني قليلاً من قصتك. ما الذي فعلته بحق هؤلاء الكلاب المحامين الذين هم هناك كخمس قطع من الملك؟ يبدو أنهم غاضبون منك بفخر! كم هذا مضحك!

فهز كتفيه، وأحنى رأسه (بهيئة لطيفة يا مسكين!)

وقال لي: - يا إلهي! أيها النقيب، ليس هذا كثيراً، هيا: ثلاثة أبيات شعرية ساخرة عن الديركتوار[4]، هذا كل شيء.

---

[4] كان نظام الديركتوار نظاماً سياسياً فرنسياً من نوع نظام الإدارة الذي كان معمولاً به خلال الجمهورية الأولى، من 4 برومير الرابع (26 أكتوبر 1795) إلى 18 برومير الثامن (9 نوفمبر 1799).

- قلت: لا يمكن!

- يا إلهي، نعم! لم تكن الأبيات حتى جيدة جدا. لقد ألقي القبض علي في 15 فراكتيدور واقتيدت إلى لا فورس، وحوكمت في السادس عشر من الشهر، وحكم علي بالإعدام أولاً ثم بالإبعاد من باب العطف. - هذا مضحك! إن المديرين رفقاء حساسون جداً؛ لأن هذه الرسالة التي تعرفها تعطيني الأمر بإطلاق النار عليك. فلم يجب، وابتسم مبتسماً متظاهراً بمظهر جيد بالنسبة لشاب في التاسعة عشرة من عمره. واكتفى بالنظر إلى زوجته ومسح جبينه الذي كانت قطرات العرق تتساقط منه. كانت قطرات العرق تتساقط على وجهي بنفس القدر على الأقل وقطرات أكثر في عيني. ثم أكملت: "يبدو أن هؤلاء المواطنين لم يرغبوا في القيام بعملك على الأرض؛ فقد ظنوا أن الأمر لن يبدو سيئًا هنا. ولكن الأمر محزن جداً بالنسبة لي، فبالرغم من أنك فتى طيب، إلا أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك، فأمر الإعدام موجود بالترتيب وأمر التنفيذ قد وقع ووقع بالأحرف الأولى وختم، ولا ينقصه شيء. لقد حيّاني بأدبٍ شديد، وهو خجول.

- قال، وصوته ناعم كالعادة: "أنا لا أطلب أي شيء أيها النقيب. أود فقط أن أتحدث قليلاً مع لور وأطلب منك أن تحميها في حالة نجاتها مني، ولا أعتقد أنها ستنجو.

- إذا لم يكن لديك مانع، سآخذها إلى عائلتها عند عودتي إلى فرنسا، ولن أتركها حتى لا تعود ترغب في رؤيتي. ولكن، في رأيي، يمكنك أن تطري نفسك بأنها لن تعود من هذا الطريق؛ مسكينة تلك المرأة الصغيرة!

فأخذ بيدي الاثنتين وعصرهما وقال لي: (يا قائدي الشجاع، إنك تعاني أكثر مني بل أكثر مما أعاني، مما لا يزال عليك أن تفعله، إنني أشعر بذلك؛ ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ إنني أعتمد عليك في أن تحافظ لها على القليل الذي يخصني، وأن تحميها، وأن تحرص على أن تحصل على ما يمكن أن تتركه لها أمها العجوز، أليس هذا صحيحاً ؟

- وهنا أضاف بهدوء أكثر: وهنا يجب أن أخبرك أنها حساسة جداً؛ وكثيراً ما يتأثر صدرها إلى حد الإغماء عدة مرات في اليوم؛ ويجب أن تستر نفسها جيداً دائماً. وأخيراً، هل ستحل محل والدها ووالدتها وأنا قدر الإمكان، أليس كذلك؟ إذا كان بإمكانها الاحتفاظ بالخواتم التي أهدتها لها أمها، فسأكون سعيداً بذلك. لكن إذا احتجنا لبيعها من أجلها، سنضطر لذلك. مسكينة

لوريت، أنظر كم هي جميلة لقد تحدثت معها بلهجة مرحة حتى لا تضعف؛ لكني لم أستطع التحمل أكثر!

- حسنا، هذا يكفي، قلت لها، الناس الطيبون يتفاهمون جيدا. اذهب وتحدث إليها، ودعنا نسرع. وصافحته كصديق، ولما أبقى يده على يدي ونظر إليّ نظرة واحدة:

- آه، إذا كان لي من نصيحة أقدمها لك، أضفت، فهي ألا تتحدث معها في هذا الأمر. سنقوم بتسوية كل شيء وهي لن تتوقع ذلك، وكذلك أنت، فلا تقلق؛ فهذا شأني أنا.

- آه، هذا أمر مختلف، قال: "لم أكن أعرف ... هذا أفضل في الواقع. كما أن الوداع يضعفك.

- نعم، نعم، قلت له: "لا تكن طفوليًا، هذا أفضل. لا تقبله يا صديقي، لا تقبله إن استطعت، و إلا ضعت.

صافحته مصافحة قوية أخرى وتركته يذهب. كان الأمر صعباً بالنسبة لي، كل ذلك. وبدا لي أنه كان يحفظ السر جيداً، لأنهما سارا يداً بيد لمدة ربع ساعة، ثم عادا إلى حافة الماء ليلتقطا الحبل والثوب الذي اصطاده أحد موساي. حلّ الليل فجأة. كانت اللحظة التي عزمت على اغتنامها. لكن تلك

اللحظة استمرت معي حتى اليوم، وسأظل أجرها كالكرة والسلسلة لبقية حياتي.

*هنا اضطر القائد العجوز إلى التوقف. امتنعتُ عن الكلام خوفاً من تشتيت أفكاره، وتابع وهو يضرب على صدره: "أقول لك، ما زلت لا أستطيع فهم تلك اللحظة. لقد شعرت بالغضب يمسك بشعري، وفي الوقت نفسه كان هناك شيء ما جعلني أطيعه ودفعني إلى الأمام. فناديت الضباط، وقلت لأحدهم:

- هلموا إلى قارب في البحر، بما أننا الآن جلادون! ستضعون هذه المرأة فيه وتذهبون بها إلى البحر حتى تسمعوا إطلاق النار. ثم ستعودون.

- !أطيعوا قطعة من الورق !لأن هذا هو كل ما كان يجب أن يكون هناك شيء ما في الهواء ليدفعني. ولمحت ذلك الشاب... يا له من منظر فظيع... جاثياً أمام لوريته يقبل ركبتيها وقدميها. فصرخت كالمجنون:

- فرقوا بينهما! كلنا أوغاد!

- افصلوا بينهما... الجمهورية المسكينة جثة هامدة! الدليل، أيها المديرون، إنها حشرات! سأغادر البحر! أنا لا أخاف من كل محاميكم؛ ما الذي يهمني إذا قالوا ما أقول؟ آه، أنا بالفعل أهتم بهم! لكنت قتلتهم جميعاً، خمستهم الأوغاد! أوه! كنت سأفعل ذلك؛ لقد كنت أهتم بالحياة بقدر اهتمامي بالماء

الذي يسقط هناك، انظروا! لقد اهتممت بالفعل! حياة مثل حياتي! !آه، نعم! حياة مسكينة... تابعوا !

***

وخفت صوت القائد شيئاً فشيئاً وأصبح مضطرباً ككلماته، ومضى في سيره وهو يعض شفتيه ويعبس في ذهول رهيب شرس. وكان يقوم بحركات متشنجة خفيفة، ويضرب بغلته بغمد سيفه كأنه يريد قتلها. ما أدهشني هو أنني رأيت بشرة وجهه الصفراء تتحول إلى حمرة داكنة. فكّ سحاب بدلته وفتحها بعنف على صدره وكشفها للريح والمطر. واصلنا السير في صمت. كان من الواضح لي أنه لم يعد يتحدث عن نفسه، وأنني سأضطر إلى طرح الأسئلة.

- قلت له وقد انتهى من قصته: "أستطيع أن أفهم جيداً"، "بعد هذه المغامرة القاسية يجب أن تكره عملك."

- " فقال لي بفظاظة: "هل أنت مجنون؟ إن قبطان السفينة لن يضطر أبداً إلى أن يكون جلاداً، إلا عندما تأتي حكومات القتلة واللصوص لتستغل عادة الرجل المسكين في الطاعة العمياء، في الطاعة الدائمة، في الطاعة

كالآلة التعيسة، رغم قلبه. وفي الوقت نفسه سحب منديلاً أحمر من جيبه وبدأ يبكي كالأطفال. فتوقفت للحظة لأعدل ركابي، وبقيت خلف العربة وسرت برهة من الوقت خلفه، وقد شعرت أنه سيشعر بالمهانة إذا رأيت دموعه الغزيرة بوضوح شديد. لقد كان تخميني صحيحاً، لأنه بعد حوالي ربع ساعة، جاء هو أيضاً وراء طاقمه المسكين، وسألني عما إذا كان لدي أي شفرات حلاقة في رف معطفي؛ فأجبته ببساطة أنه بما أنني لم تكن لدي لحية بعد، فلست بحاجة إليها. لكنه لم يهتم، فقد كان يتحدث عن شيء آخر. ومع ذلك فقد سرني أن أرى أنه كان عائداً إلى قصته، لأنه قال لي فجأة:

- أنت لم تر سفينة في حياتك، أليس كذلك؟

- لقد رأيت واحدة فقط في البانوراما في باريس، وأنا لا أضع الكثير من الأهمية في العلوم البحرية التي تعلمتها منها.

- إذن أنت لا تعرف ما هو القارب؟

- أنا متأكد من أنني أعرف،" قلت. - إنها نوع من المصطبة المصنوعة من العوارض التي تمتد من مقدمة السفينة، ومنها يتم إلقاء المرساة في البحر. وأضاف بهدوء أكثر: "عندما يتم إطلاق النار على رجل، فإنه عادة ما يوضع هناً".

- فهمت، لأنه يسقط من هناك في البحر. فلم يرد، وراح يصف جميع أنواع القوارب التي يمكن أن تحملها البارجة وموضعها في السفينة؛ ثم واصل سرده دون أي ترتيب في أفكاره بذلك الجو المتأثر من عدم المبالاة الذي تمنحه الخدمة الطويلة بلا ريب، لأنك يجب أن تظهر لمن هم دونك احتقاراً للخطر واحتقاراً للرجال واحتقاراً للحياة واحتقاراً للموت واحتقاراً لنفسك؛ وكل هذا يخفي، تحت قشرة صلبة، حساسية عميقة دائماً تقريباً.

- إن صلابة رجل الحرب تشبه قناعًا حديديًا على وجه نبيل، تشبه زنزانة حجرية تحتجز سجينًا ملكيًا.

***

- هذه القوارب تحمل ستة رجال". قفزوا فيها وأخذوا لور دون أن يتسنى لها أن تصرخ أو تتكلم. أوه، هذا شيء لا يمكن لأي رجل صادق أن يعزي نفسه به عندما يكون هو السبب في ذلك. لا يهم ما تقول، فأنت لا تنسى أبداً شيئاً كهذا! آه، يا له من طقس نحن فيه!

- ما الذي جعلني أقول ذلك! عندما أحكيها لا أستطيع التوقف، لقد انتهى الأمر. إنها قصة تسكرني مثل النبيذ المعتق.

- !آه! يا له من طقس

- لقد ارتديت معطفي !كنت أخبرك، على ما أعتقد، عن لوريت الصغيرة - !تلك المرأة المسكينة

- يا لهم من أناس حمقى في هذا العالم! لقد كان الضابط أحمق بما فيه الكفاية ليقود الزورق قبل المركب بعد ذلك، صحيح القول أنه لا يمكنك التنبؤ بكل شيء لقد كنت أعتمد على الليل لإخفاء الأمر، ولم أكن أفكر في ضوء اثني عشر مدفعاً تطلق النار في وقت واحد. و، يا إلهي، من الزورق رأت زوجها يسقط في البحر، مصاباً بالرصاص. وإذا كان هناك إله في الأعلى فهو يعلم كيف حدث ما سأرويه لك، أما أنا فلا، ولكننا رأينا وسمعنا كما أراك وأسمعك. وفي لحظة إطلاق النار وضعت يدها على رأسها كأنما أصابتها رصاصة في جبينها، وجلست في الزورق دون أن يغمى عليها ودون أن تصرخ ودون أن تتكلم، وعادت إلى الزورق كما ومتى أرادت. ذهبت إليها وتحدثت معها لفترة طويلة وبقدر ما استطعت. فبدا لي أنها كانت تصغي إليّ وتنظر في وجهي وتفرك جبينها. لم تفهم، وكانت جبهتها حمراء ووجهها

شاحبًا. كانت ترتجف في كل مكان، كما لو كانت خائفة من الجميع. بقيت معها. كانت لا تزال كما هي، تلك المسكينة، غبية، أو حمقاء، أو مجنونة، كما تشاء. لم نحصل على كلمة واحدة منها إلا عندما قالت أننا نخرج ما بداخل رأسها.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت حزيناً مثل حزنها، وأحسست بشيء في داخلي يقول لي: ابق أمامها إلى آخر أيامك، واحتفظ بها؛ ففعلت. ولما عدت إلى فرنسا طلبت أن أنقل برتبتي إلى القوات البرية، فقد كنت أكره البحر لأني سفكت فيه دماء بريئة. بحثت عن عائلة لوري. كانت والدتها قد ماتت. أما شقيقتاها اللتان أخذتها إليهما بجنون فلم ترغبا فيها وعرضتا أن تأخذاها إلى شارينتون. أدرت لهم ظهري وأبقيتها معي.

- آه، يا إلهي! إذا أردت أن تراها يا صديقتي فالأمر عائد إليك.

- هل يمكن أن تكون هناك؟

- بالتأكيد! انتظر

- ...هوو! هوو! البغل

كيف أواصل طريقي

وأوقف بغلته المسكينة التي بدا لي أنها سُحرت لأنني سألت هذا السؤال. وفي الوقت نفسه رفع قماش عربته الصغيرة المشمع، كما لو كان يرتب القش الذي كاد يملأها، ورأيت شيئاً مؤلماً جداً. رأيت عينين زرقاوين، هائلتي الحجم، رائعتين في الشكل، بارزتين من رأس شاحب، نحيف، طويل، مغمور بشعر أشقر مسطح. والحق أني لم أر في الحقيقة إلا هاتين العينين الجميلتين اللتين كانتا كل شيء في هذه المرأة المسكينة، لأن الباقي كان ميتاً. كانت جبهتها حمراء؛ وكانت وجنتاها البيضاء الجوفاء قد ازرقت عظام وجنتيها، وكانت جاثمة في وسط القش حتى أنك بالكاد ترى ركبتيها اللتين كانت تلعب عليهما الدومينو وحدها. نظرت إلينا للحظة، وارتجفت لفترة طويلة، ثم ابتسمت لي قليلاً، ثم عادت إلى اللعب. بدا لي أنها كانت تحاول أن تعرف كيف ستغلب يدها اليمنى يدها اليسرى.

- قال لي قائد الكتيبة: "كما ترى، إنها تلعب هذه اللعبة منذ شهر حتى الآن". هذا مضحك، أليس كذلك؟ وفي الوقت نفسه بدأ يستبدل قماش الزيت الذي كان على شاشته التي أفسدها المطر قليلاً.

- قلت له: " لوريت المسكينة، لقد ضاعت إلى الأبد. اقتربت بحصاني إلى العربة وقدمت لها يدي، فأعطتني يدها بشكل آلي وهي تبتسم بلطف شديد. ولاحظت بدهشة أن في أصابعها الطويلة خاتمين من الألماس؛ فظننت أنهما لا يزالان خاتمي أمها، وتعجبت كيف تركهما الفقر في مكانهما. ولم أكن لأذكر ذلك للقائد العجوز، ولكن عندما تابعني بعينيه ورآهما في أصابع لوري قال لي بشيء من الفخر: (إنهما ماستان كبيرتان جداً، أليس كذلك؟ قد يساويان وزنها ذهباً، لكنني لم أردها أن تتخلى عنهما، أيتها الطفلة المسكينة. عندما تلمسهما تبكي، ولا تريد أن تتركهما. بالإضافة إلى أنها لا تشتكي أبداً، ويمكنها الخياطة من وقت لآخر. لقد حافظت على كلمتي لزوجها المسكين الصغير، والحقيقة أنني لست آسفاً. لم أتركها أبدًا، وأخبرت الجميع أن ابنتي هي المجنونة. لقد احترمنا ذلك. لقد حاربت معي في كل حروب الإمبراطورية، وكنت دائماً أساندها في كل شيء. لطالما أبقيتها دافئة مع القش والعربة الصغيرة، لم يكن ذلك مستحيلاً أبداً. وكانت ترتدي ثياباً أنيقة تماماً، وأنا كقائد كتيبة براتب جيد، ومعاش تقاعدي من جوقة الشرف وشهر نابليون، وكان مبلغه ضعف ما كان يتقاضاه في تلك الأيام، كنت على علم تام بشؤوني، ولم تكن هي تعترض طريقي. بل على العكس، فقد كانت

تصرفاته الصبيانية تضحك أحياناً ضباط الفرقة السابعة الخفيفة. فتقدم إليها وربت على كتفها كما كان يفعل مع بغلته الصغيرة.

- حسناً يا فتاتي، لماذا لا تقولين شيئاً للملازم هناك؟ عادت إلى لعب الدومينو.

- أوه!" قال، "إنها خجولة بعض الشيء اليوم، لأنها تمطر. لكنها لا تصاب بالبرد أبداً الناس المجانين لا يمرضون أبداً، الأمر مريح بهذه الطريقة. في منطقة البيريزينا وطوال فترة انسحابها من موسكو، كانت عارية الرأس.

- هيا يا فتاة، استمري في اللعب، واصلي، اذهبي، لا تقلقي علينا، افعلي ما يحلو لك، اذهبي يا لوريت.

فأخذت اليد التي كان يضعها على كتفها، وهي يد كبيرة مجعدة سوداء؛ وقربتها على استحياء إلى شفتيها وقبلتها كالعبد المسكين. شعرتُ بقلبي ينقبض من هذه القبلة، فابتعدت بعنف.

- هلا أكملنا مسيرنا أيها القائد، قلت له: سيحل الظلام قبل أن نصل إلى بيثون. فأخذ القائد يكشط الطين الأصفر عن حذائه بطرف سيفه بعناية؛ ثم صعد على لوح العربة، وسحب غطاء معطف صغير كان على رأس لوري.

ونزع ربطة عنقه الحريرية السوداء ووضعها حول عنق ابنته بالتبني: ثم ركل البغلة، وهز كتفيه وقال: انطلقي أيتها العصابة!

- وانطلقنا مرة أخرى. كان المطر لا يزال يتساقط حزيناً؛ وكانت السماء الرمادية والأرض الرمادية تمتد إلى ما لا نهاية؛ وكان هناك نوع من الضوء الباهت والشمس الشاحبة المبللة تغرق خلف طواحين كبيرة لا تدور. عدنا إلى صمت عظيم. نظرتُ إلى قائدي العجوز؛ كان يمشي بخطوات واسعة، بنشاط متواصل، بينما لم تكن بغلته قادرة على القيام بأكثر من ذلك، وحتى حصاني بدأ يطأطئ رأسه. وكان هذا الرجل الطيب ينزع بين الحين والحين غطاء رأسه ليمسح صلعته وبعض الشيب الذي كان يغطي رأسه، أو حاجبيه الكثيفين، أو شاربيه الأبيضين اللذين كان المطر يتساقط منهما. لم يكن قلقاً من تأثير قصته عليّ. لم يجعل نفسه أفضل أو أسوأ مما كان عليه. لم يتنازل عن رسم نفسه. لم يفكر في نفسه، وبعد ربع ساعة بدأ، وبنفس النبرة في سرد قصة أطول بكثير عن حملة للمارشال ماسينا، حيث شكل كتيبته في مربع ضد كتيبة لا أدري ما هي كتيبة الفرسان. لم أستمع إليه، على الرغم من أنه كان يحاول إظهار تفوق المشاة على سلاح الفرسان.

جاء الليل ولم نكن نسير بسرعة. أصبح الوحل أكثر سمكاً وأعمق. لا شيء على الطريق ولا شيء في النهاية. توقفنا عند سفح شجرة ميتة، الشجرة الوحيدة على الطريق. في البداية اعتنى ببغلته كما فعلت أنا بحصاني. ثم نظر إلى العربة كما تنظر الأم إلى مهد طفلها. كنت أسمعه يقول:

- هيا، يا ابنتي، ضعي هذا المعطف على قدميك وحاولي أن تنامي قليلاً.

- هيا، هذا جيد! لم يكن لديها قطرة مطر.

- أوه، اللعنة! لقد كسرت ساعتي التي تركتها حول عنقها!

- !ساعتي الفضية المسكينة

- لا بأس يا طفلتي، حاولي أن تنامي قليلاً. الطقس الجميل سيحل قريباً.

- هذا مضحك! إنها لا تزال مصابة بالحمى، المجانين هكذا إليك بعض الشوكولاتة يا طفلتي. وأسند العربة إلى الشجرة، وجلسنا تحت العجلات، محتمين من المطر الأبدي المنهمر، وتقاسمنا كعكة معه وكعكة معي: عشاء سيئ.

- قال: أنا آسف لأن هذا هو كل ما لدينا، ولكنه أفضل من الحصان المطبوخ في الرماد مع مسحوق فوقه كالملح كما كانوا يأكلون في روسيا. مسكينة تلك المرأة الصغيرة، يجب أن أعطيها أفضل ما لدي. كما ترى، أنا دائماً ما

أبقيها منفصلة عني. إنها لا تطيق أن تكون بالقرب من رجل منذ علاقة الرسالة. أنا كبير في السن، ويبدو أنها تظنني والدها؛ وعلى الرغم من ذلك فإنها ستخنقني إذا حاولت حتى تقبيلها على جبينها. يبدو أن التعليم دائمًا ما يترك لها شيئًا، على ما يبدو، لأنني لم أرها أبدًا تنسى أن تختبئ مثل الراهبة.

- مضحك، أليس كذلك؟ وبينما هو يتحدث عنها بهذه الطريقة سمعناه يتنهد ويقول: (أبعدوا هذا الرصاص، أبعدوا هذا الرصاص! فنهضت وجعلني أجلس مرة أخرى.

- إنها تقول ذلك طوال حياتها، لأنها تعتقد دائمًا أنها تشعر برصاصة في رأسها. لكن ذلك لا يمنعها من تنفيذ كل ما يُطلب منها، وبرفق شديد في ذلك. التزمت الصمت، واستمعت إليها بحزن. وبدأت أحسب أنه من عام 1797 إلى عام 1815، حيث كنا نحن، كان قد مضى على هذا الرجل ثمانية عشر عاماً.

- وظللت لفترة طويلة صامتاً إلى جانبه أحاول أن أفهم شخصيته ومصيره. ثم، وبدون مقدمات، صافحته بحماس شديد. كان مندهشاً.

- قلت له: "أنت رجل جدير"، فأجابني: "لماذا؟ هل هذا بسبب تلك المرأة المسكينة؟ أنت تدرك أن ذلك كان واجبي. لقد نذرتُ منذ زمن طويل. وحدثني مرة أخرى عن ماسينا. وفي اليوم التالي، عند طلوع النهار، وصلنا إلى بيثون، وهي بلدة صغيرة محصنة قبيحة، حيث يبدو أن الأسوار بإحكام دائرتها قد ضغطت البيوت بعضها فوق بعض. كان كل شيء في حالة من الارتباك، وحان وقت الاستنفار. وبدأ السكان ينزعون الأعلام البيضاء من النوافذ، ويخيطون الألوان الثلاثة في بيوتهم. كانت الطبول تقرع والأبواق تدق على ظهور الخيل بأمر من الدوق دي بيري. وكانت عربات البيكاردي الطويلة تحمل المرتزقة السويسريين وأمتعتهم؛ وكانت مدافع الحرس تجري على طول الأسوار، وعربات الأمراء، وأسراب الكتيبة الحمراء التي تتشكل، تزدحم المدينة. أنساني منظر رجال درك الملك والفرسان رفيقي القديم في السفر. انضممت إلى رفقتي، وفقدت العربة الصغيرة وسكانها المساكين وسط الزحام. وللأسف الشديد، فقدته إلى الأبد.

وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أقرأ فيها أعماق قلب الجندي الحقيقي. وقد كشف لي هذا اللقاء عن نوع من الرجال لم أكن أعرفه من قبل، ولا تعرفه البلاد جيداً ولا تحسن معاملته؛ ومن ذلك الحين جعلته في مكان

عالٍ جداً من تقديري. ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث كثيراً من حولي عن رجل يشبهه ويقدر على هذا النكران الكامل غير المكترث بالذات. والآن، وخلال السنوات الأربع عشرة التي عشتها في الجيش، لم أجد هناك فقط، ولا سيما في صفوف المشاة المحتقرة والفقيرة، هؤلاء الرجال ذوي الشخصية العريقة، الذين يدفعون الإحساس بالواجب إلى أقصى عواقبه، غير نادمين على الطاعة ولا خجلين من الفقر، بسطاء في أخلاقهم ولغتهم، معتزين بمجد البلاد غير عابئين بأمجادهم الخاصة، منغلقين على أنفسهم بسرور في غفلتهم ومشاركين التعساء في خبزهم الأسود الذي يدفعون ثمنه من دمائهم. ولم أعرف لفترة طويلة ماذا حلّ بقائد الكتيبة المسكين، ولا سيما أنه لم يخبرني باسمه ولم أسأله. ولكن في أحد الأيام في المقهى في عام 1825 على ما أعتقد، قال لي نقيب قديم من مشاة الخط، وصفته له وأنا أنتظر العرض: والله يا عزيزي لقد عرفته يا مسكين! لقد كان رجلاً صالحاً؛ لقد قتلته قذيفة مدفع في واترلو. وكان في الواقع قد ترك في أمتعته فتاة مجنونة أخذناها إلى مستشفى أميان، ونحن في طريقنا إلى جيش اللوار، فماتت هناك غاضبة بعد ثلاثة أيام.

- قلت: (لم يعد لها والدها بالتبني!)

- آه باه يا أبتاه!" فأضاف في هواء أراد أن يجعلها رقيقة.

- قلت وأنا أغادر: "أنا أقول إنهم يضربون على التذكير". وقمت أنا أيضاً بفعل إنكار ! .

Hector Malot

هيكتور مالو

Hector Malot (1830-1907)

هو مؤلف أكثر من سبعين رواية حققت نجاحًا كبيرًا في عصرها، وأشهرها رواية "بلا عائلة Sans famille" التي نُشرت عام 1878.

الخوف

لا جدوى من مناقشة الخوف، يقول بلانشون: "لكل إنسان خوفه الخاص به. فما هو سخيف بالنسبة لشخص ما هو طبيعي بالنسبة لشخص آخر؛ فبعض الناس يخافون من نصل لامع، والبعض الآخر من جلد حيوان؛ وأنا أخاف من الحيوانات ذات الدم البارد، حتى السحالي والضفادع؛ فإذا ذهبت في نزهة في الحقول، و إذا صادفت في سهل واسع عراء بركة ذات حواف مستوية دون أي مفاجأة محتملة، و إذا قفزت الضفادع التي أخاف من خطواتي في الماء الهادئ ارتجفت من رأسي إلى أخمص قدمي كما لو كنت قد تلقيت صعقة كهربائية. هذا سيشرح لك كيف مررت بتجربة مرعبة في أنتويرب ما زلت أرتجف حتى الآن لأخبرك عنها. كنتُ في أنتويرب لأصنع نسخة ثانية من لوحة كوينتن ميتزيس الثلاثية "دفن المسيح". من المؤكد أن لوحة النزول من الصليب ولوحة الافتراض لروبنز هما عملان مثيران للإعجاب؛ ولكن، في المتحف، لوحة ميتزيس في دفن المسيح أقوى بكثير من لوحة روبنز المسيح مع القش، تماماً كما أن لوحات ماساتشيو الجدارية في كنيسة برونيجي أقوى من لوحات رفائيل في غرف الملابس. لكن الأمر

لا يتعلق بالبدائيين، بل بخوفي. وذات يوم، عندما بقيت أعمل على نسختي حتى أغلق المتحف، شعرت بالحاجة إلى تحريك ساقيّ في طريقي للخروج، ونزلت إلى شيلدت، وتتبعت رصيفه. كان المد المتصاعد يرفع بلطف البواخر العظيمة العابرة للأطلسي والسفن الشراعية الهولندية بقوائمها الخضراء. وفي الميناء المزدحم، كنت أتجول، دون أن أقلق بشأن الوقت من النهار، وأراقب الخيول الفلمنكية الضخمة وهي تجر أثقل الأحمال دون عناء، وأتأمل النهر الرمادي بمسافته الضبابية حيث تغرق أشعة الشمس النحاسية في الغروب. وتدريجياً تاهت المروج المنخفضة الناعمة على طول الضفاف في الضباب الشمالي الذي انتشر في مساء الصيف، وفكرت في الذهاب إلى العشاء. كان الظلام قد بدأ يحل؛ وكانت المياه في البرك اقد تحولت إلى اللون الأسود، وفي هذا الظلام الحالك عدت إلى النزل الذي كنت أرتاده والواقع بجوار قناة برورز. وكان بيتاً قديماً يشبه إلى حد كبير بيت بلانتين الذي يعرفه الجميع، وشارعاً ضيقاً تفوح منه رائحة الملح والقطران والبطارخ. عندما وصلت، وجدت مائدة العشاء قد انتهت. كان الوقت متأخراً؛ كنت قد نسيت الوقت من النهار وأنا أتأمل سماء أنتويرب الناعمة والنهر الذي يداعب جوانب القوارب بلطف. لم يكن في غرفة الطعام سوى مسافر واحد، وهو

مسافر متأخر مثلي. وضعنا أماكننا مقابل بعضنا البعض. وبينما كنت أهجم على الطبق الأول المبرد بالصلصة المثلجة، تفحصت الحساء بفضول رسام أمامه شخصية مجهولة ذات مظهر خلاب. من كان هو؟ متشرد، رجل متحضر، متوحش: كان الوجه أسمر مائلاً إلى الحمرة، والشعر غير مهذب، ولكن العينين كانتا نشيطتين. ولم أمض على المائدة خمس دقائق حتى بدأ الغريب يتحدث إليّ؛ وبعد ربع ساعة بدأنا نتحدث كما لو كنا معارف قدامى. وعلمت أنه جاء من الهند، وأنه قادم إلى أنتويرب ليحاول بيع مجموعة من الحيوانات والفهود والنمور والغزلان والثعابين إلى حدائق الحيوان. وبمواجهته بهذه الثقة سألته سؤالاً بليغاً:

- هل حيواناتك هنا معك؟

- كل الفهود والنمور والغزلان في الإسطبلات في أقفاصها، أما الثعابين فهي في غرفتي يا للعجب، يا للعقلانية مقفلة بشكل مزدوج ومغلقة في قفصها المتنقل. كانت قشعريرة صغيرة تسري بالفعل في مؤخرة رقبتي.

- هل ستقضي الليلة هنا؟

- بالطبع سنفعل.

- ماذا لو هربت أفاعيك؟

- هل ينامون

- وعيونهم مفتوحة؟

- سيدي، هذه طريقتهم ولكن يمكنني أن أخبرك أنها ليست دائما فظيعة كما يعتقد الناس في أوروبا. أعرف فتاة شابة كانت تحتفظ بـ"كوبرو دي كابيلو" أي ثعبان الكوبرا تحت وسادتها طوال الليل.

- يا لها من قصة جميلة!

- لم تكن قد لاحظت شيئاً سوى أن حركات صغيرة لا يمكن تفسيرها كانت تهز وسادتها. وذات يوم، بينما كانت تتفحص سريرها، اكتشفت حيوانا صغيراً حكيماً جداً وراضياً يرفع رأسه لينظر إليها بتقدير: أجمل حيوان يمكن تخيله. ولدي العديد منها، وكذلك الخزف والأفاعي المجلجلة تحت تصرفك يا سيدي. و إذا أردت أن تراها فهي جديرة بذلك؛ فهي لا تملك إلا رئة واحدة، وتسبح بلا زعانف، وتمشي بلا أرجل، وتزينها مائتان وخمسون زوجاً من الأضلاع.

- شكراً جزيلاً لك. أنا مهتم عن بُعد فقط بالحيوانات ذات الرئة الواحدة ومائتين وخمسين زوجًا من الأضلاع.

- هل ستخاف منهم؟

- أنا أصدقك، في الواقع، أعتقد أنه من الإجرام أن نجلب هذه الحيوانات إلى بلادنا؛ فقد تهرب.

- والعلم!

- إذا كانت ضرورية للعلم فليذهب العلماء ويدرسوها حيث هي، ولكن لا تدعوها تأتي إلى بلادنا لتعرض على العلماء. ومضى الحديث في هذا الموضوع بعض الوقت على الرغم مني، وفي ذلك المساء علمت أن الزواحف قبل أن تبتلعنا كلنا، لها عادة احترازية هي أن تلعقنا بغزارة؛ ويبدو أن ذلك أفضل لها. كنت أشعر بالبرد عندما انصرفت. كانت غرفتي آخر غرفة في نهاية الممر. وصعدت إلى الطابق العلوي مباشرة، ورأسي مليء بقصص السهرة، وخلعت ملابسي ببطء، ولكن ليس قبل أن أكشف عن سريري وأرفع الستائر وأفتح خزانة ملابسي. وبينما كنت أتوضأ سمعت ضجة في الغرفة المجاورة لغرفتي وصوتاً يناديني:

- مساء الخير يا سيدي. سمعت أنك لم تخلد إلى النوم بعد. نم جيداً، فأنا لم أخلد إلى الفراش منذ ثمانية أيام.

الرجل صاحب "كابرو دي كابيلو"! كنت على وشك أن أرتدي ملابسي وأطلب تغيير الغرف. غير أن الاشمئزاز من الدخول إلى سرير جديد تم إعداده

لي على عجل، والحرج من الاعتراف بمخاوفي الطفولية، أوقفاني. كان الأمر غبيًا وسخيفًا للغاية؛ لم تكن تلك الأفاعي النائمة لتتسلق الجدار أو تنزل من المدخنة لتنام معي. أرغمت نفسي على إطفاء الشمعة والذهاب إلى سريري الذي كان بعرض الغرفة بالكامل بعيدًا عن غرفة الأفاعي. بقيت مستيقظاً لفترة طويلة، أتقلب في فراشي مئات المرات، متوتراً ومنزعجاً من استمرار شعوري بأن فكرة هذا الحي لا تزال تطاردني. تحت الباب الواصل بين الغرفتين، والذي كنت قد أقفلته، استطعت أن أرى شعاعاً من الضوء يتسلل من تحته وخشيت لحظة اختفائه. فمع انطفاء الشمعة لن يستطيع جامع هذه الحيوانات والزواحف أن يراقب ضيوفه ويغفو ذلك النوم الرمادي الذي أخبرني عنه. اختفى الضوء الصغير وكذلك اختفى ضجيج المنزل... صمت ممل، وليل أسود... نمت، لكن بنوم خفيف، نوم خفيف خوفا من الحفيف، نوم خائف، نوم من ينتظر ويراقب. كم نمت هكذا، لم أعرف كم من الوقت نمت هكذا، ساعة أو ساعتين ربما. وقد أيقظني من هذه الحالة ضجة انتزعتني في الحال من تردد الاستيقاظ ببداية. كنت أعرف أين أنا، ومخاوفي، وجيراني، وترددي في الذهاب إلى الفراش، والقصص التي أثارت إعجابي، كل ذلك عاد إليّ دفعة واحدة. جلستُ على السرير وأصغيت، ورأسي خالٍ وكأنني لم أنم،

لكن قلبي يخفق، جلستُ على السرير وأصغيت. كانت ضوضاء غير عادية: نوع من الرذاذ غير المنتظم، المكتوم، الباهت، الذي توقف لثانية، ثم استؤنف، ببطء أو على عجل، مع رفرفة أشد من حين لآخر، يعقبها صمت. مددتُ ذراعي بسرعة نحو طاولتي لأحضر بعض أعواد الثقاب، لكني لم أجد أيًا منها. كنت قد تركت العلبة والشمعة على رف الموقد، وكنت أمسك قلبي بكلتا يدي. كان صوتها يرعد بصوت عالٍ جدًا؛ كنت أحدق بعيون واسعة.

كان الظلام حالكاً، ظلاماً حالكاً كظلام البئر، واستمر الضجيج الآن أكثر خفوتاً ولكن الضجيج كان أكثر تواتراً وأثقل. صرخة مجنونة اختنقت في حلقي: ثعابين! توقف دمي في عروقي. أردت أن أصرخ مذعورًا، أن أصرخ كما لو كنت في حلم، لكنني لم أستطع. غمرني العرق البارد، وانقبض فكي، وسقطت على سريري مختنقًا من الألم. في عقلي العاصف، الذي كان مع ذلك يفكر بوضوح ويرى بوضوح كما لو كان ملكًا لشخص آخر غيري، شرحت لنفسي كل شيء وتتبعت الزواحف وهي تسير. كانت قد تسللت من تحت الباب المتصل، الباب الذي كنت أنظر إليه قبل أن أغفو والذي كان يدخل منه نفاثات من الضوء بعرض إصبعين، وكان الرذاذ والضبابية هو زحف الحيوان، تارة يتحرك ببطء بحثاً عن وجهته، وتارة يرتفع ويهبط بجرأة بعد أن

أحسست بما يجذبه، وقد أدركت صوت الجلد اللزج الباهت على البلاط، وسمعت خفقاناً ثقيلاً من اللحم الحي. وسرعان ما كانت الزواحف المتوحشة المتجمدة ترقد بجوار جسدي. كانت تتعانق في وسط سريري، بينما كانت ألسنة لعابية لزجة تلحس وجهي. كنت في عذاب لا يوصف. ولكن، في خضم أفكاري، خطرت لي ذكرى. فالزواحف، عندما لا تكون متهيجة أو جائعة، ليس لديها سوى حاجة واحدة، وفكرة واحدة فقط - الدفء. حالة النعيم التي تجدها تخدرها ويمكنها أن تظل غير مؤذية لفترة طويلة. وبجهد يائس نهضت على قدمي وأمسكت ببطانيتي الصوفية، وسحبتها وألقيتها على نافذة غرفة النوم. يا لها من أذن كنت أستمع إليها! ماذا كانوا سيفعلون؟ هل كنت سأسمع، هل كنت سأفهم؟ توترت أعصابي وشهقت لألتقط أنفاسي. كانت الضوضاء تزداد خفوتًا بالتأكيد وخفوتًا وندرة. هل وجدوا البطانية؟ أخيرًا لم أسمع شيئًا آخر. تنفستُ تنهيدة أمل، واسترخى جسدي الذي كان قد ثقله الرعب استرخى قليلاً؛ تنفستُ بسهولة أكثر وحاولت أن أنادي ولكني لم أتعرف على صوتي، كان صوتي أصم ومكتوماً، لم يتحرك أحد أو يجيب؛ فحاولت أن أتبع خطاً من خطوط التفكير لأتوقف عند شيء ما. ولكنني أدركت في الحال أنني لن أملك القوة على النهوض من الفراش ووضع قدمي

على الأرض قبل طلوع النهار. وخطر لي وأنا أسير أنني قد ألمس أو أصطدم بوحش بشع كان مجرد لمسه لي يقضي عليّ، فلم يكن لي من الشجاعة ما يجعلني أتحلى بها. أما أن أنهض وأهرب عندما يحين النهار وأستطيع أن أرى الخطر وأتجنبه - نعم؛ أما أن أذهب أعمى شجاعاً - فلا. كان عليَّ أن أبقى مرتجفاً مرتعشاً متكوماً في زاوية من زوايا فراشي دون أن أتحرك خوفاً من أن أمد ذراعي أو ساقيَّ إذا مددت ذراعي أو ساقيَّ، من أن ألتقي بالجلد الأملس الصلب الذي كنت أتوقع أن أحتضنه في كل دقيقة.

يا لها من ليلة! لقد حسبت كل شيء. ألم يكن جلد الإنسان إغراءً لا يقاوم لهذه الكائنات الرهيبة التي تبتلع الكائنات الحية؟ ألم تكن مجرد الحاجة إلى قضم دمًا دافئًا ينبض بالدفء لتخرجهم من حالة النعيم التي اعتمدت عليها لإنقاذ نفسي؟ لحقت وسادتي بالبطانية وأنا ملتصق بالجدار، غارقًا في الزقاق بشكل أو بآخر، انتظرت. لا يكفي أن أقول إن اليوم كان طويلاً. وأخيراً رأيت بياض الفجر من النوافذ، ولكنه كان شاحباً جداً، شاحباً بشعاً، لدرجة أن كربي جعلني أراه. غير أنه شيئاً فشيئاً اتضح، وازداد وضوحاً شيئاً فشيئاً، واستطعت أن أتبين النوافذ. ولكن على الأرض، كيف لي أن أفتش بعيني في كومة البطانيات والوسائد، كيف لي أن أرى بجانبي، في ظل الستائر، إذا لم يكن

قد تحرك شيء، إذا كنت وحدي؟ آه، كم كان جميلاً ذلك الضوء الذي كان ينزلق مباشرة عبر زجاج النافذة ويضيء حتى أكثر زوايا الغرفة غموضاً! منذ أن كان الضوء أكثر أو أقل، كنت أراقب البطانية؛ والآن أستطيع أن أراها بشكل أفضل. لم يكن هناك ما يدعو للقلق. لقد كانت رقيقة جداً وقد سقطت بشكل مسطح، ولم تكن هناك أي علامة تدل على أنها كانت مسكونة. لم تكن الوسادة، التي ظلت منتصبة على الكرسي، قادرة على أن تصبح مأوى. كانت سجادتي الصغيرة مسطحة أمام سريري، ولم يكن حولي شيء سوى ملاءاتي المجعدة. هل كنت أهلوس؟ أخذت من سريري خفيّ وبنطالي، وبعد أن ارتديتهما، غامرْتُ بالخروج. بدت البطانية التي كانت لا تزال مترهلة نموذجًا للصراحة. على الرغم من ذلك، تقدمت بحذر، ملتزمًا جانب الباب، لكنني لم أكن قد خطوت ثلاث خطوات قبل أن أدرك كل شيء. كان وعائي الممتلئ بالماء والملقى على الأرض يُستخدم كقبر لفأر. لقد كانت محاولاته لإنقاذ نفسه هي التي أيقظتني؛ لقد كانت معاناته وهذا الغرق المأساوي الطويل هو الذي أفزعني. في ذلك المساء، كنت قد انتقلت إلى منزل آخر.

Victor Hugo

(1802 – 1885)

فيكتور هوغو

الشيطان جامع الخرق

... في تلك الأيام، كان للشيطان مغامرة غريبة وغير سارة للغاية. لقد كان من عادته أن يحمل الأرواح التي تخصه في كيس، كما يمكن أن نرى على بوابة كاتدرائية فريبورغ في سويسرا، حيث صُوِّرَ برأس خنزير على كتفيه، وناب في يده، وكيس خِرَق على ظهره؛ لأن الشيطان يجد أرواح الأشرار ويجمعها في أكوام القمامة التي يودعها البشر في زاوية كل الحقائق الأرضية أو السماوية العظيمة. لم يكن من عادة إبليس أن يغلق كيسه، مما يعني أن نفوسًا كثيرة تفلت بفضل خبث الملائكة السماوي. أدرك إبليس ذلك فوضع على كيسه غطاءً جيدًا بقفل جيد. لكن الأرواح، التي كانت خفية جدًا، لم يزعجها الغطاء، وبمساعدة الأصابع الوردية الصغيرة للكروبيم[5]، وجدت طريقة للهروب من خلال قفل في القلنسوة. فلما رأى إبليس ذلك فزع وقتل جملاً، ومن جلد السنام صنع جلد نبيذ استطاع أن يغلقه بشكل عجيب بمساعدة الشيطان هرمس، وكان يشعر بالسعادة عندما يمتلئ بالأرواح أكثر مما يشعر به تلميذ في المدرسة وهو يحمل محفظة مليئة بالترتر[6] الذهبي.

[5] ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى ويقال عنهم أنهم ذوو جناحين.

[6] نوع من الخرز الملون اللماع الذي يستخدم في زركشة وتطريز الملابس والحقائب أو الوسائد والستائر.

عادة في صعيد مصر، على شواطئ البحر الأحمر، يملأ الشيطان هذا الجراب بعد أن يقوم بجولاته في أرض الوثنيين والأشرار: المكان مهجور جداً؛ وهو شاطئ رملي بالقرب من بستان نخيل صغير يقع بين كوما حيث ولد القديس أنطونيوس وكليزما حيث مات القديس سيسويس. وذات يوم، عندما كان الشيطان قد أتمّ صيده بشكل أفضل من المعتاد، كان يملأ كأس النبيذ بسعادة عندما التفت بالصدفة فرأى ملاكاً على بعد خطوات قليلة ينظر إليه مبتسماً. فهز الشيطان كتفيه واستمر في تكديس الأرواح التي كانت معه في الكيس، وأقسم أنه لم يقشرها إلا قليلاً، لأن كل شيء جيد بما فيه الكفاية لذلك المرجل بالذات. ولما انتهى أمسك الكيس بإحدى يديه ليحمله على كتفيه؛ ولكن كان من المستحيل عليه أن يرفعه عن الأرض، فقد وضع فيه نفوسًا كثيرة جدًا وثقيلة جدًا كالآثام التي كانت محملة بها. ولكن المحاولة الثانية كانت عديمة الفائدة كالأولى، فلم تتحرك الخمرة أكثر مما لو كانت رأس خنزير يخرج من الأرض.

- قال إبليس: "يا أرواح الرصاص"، وبدأ يقسم. والتفت حوله فرأى الملاك الجميل ينظر إليه ضاحكًا.

- صرخ الشيطان قائلاً: "ماذا تفعلين هنا؟

- قالت الملاك: "أترى": "لقد كنت أبتسم الآن والآن أضحك.

- يا أيها الطائر السماوي، أيها البريء العظيم"، فأجابه أسموديوس. لكن الملاك صار صارمًا وتكلم معه هكذا:

- أيها التنين، هذه كلماتي لك من الذي هو الرب: لن تستطيع أن تحمل هذا الحمل من الأرواح إلى الجحيم حتى يساعدك قديس من السماء أم مسيحي سقط من السماء في رفعه عن الأرض ووضعه على كتفيك.

بعد قولي هذا، فتح الملاك جناحي نسره وطار بعيدًا. كان الشيطان في موقف حرج.

- فتذمّر من بين أسنانه: ماذا يعني هذا الأحمق؟ قديس من السماء؟ أم مسيحي سقط من السماء؟ سأضطر إلى الانتظار طويلاً إذا كان عليّ أن أبقى هنا حتى تأتي مثل هذه المساعدة في طريقي! لماذا بحق السماء حشوت هذه الحقيبة بهذا الشكل الفظيع؟ وهذا الأحمق، الذي ليس إنسانًا ولا طائرًا، كان يضحك عليّ! والآن عليَّ أن أنتظر قديساً من السماء أو مسيحياً من السماء! هذه قصة غبية، وعليك أن تعترف بأنه ليس هناك الكثير من المرح في الأعلى! بينما كان يتحدث إلى نفسه، ظن سكان كوما وكليزما أنهم سمعوا دمدمة رعد في الأفق. كان الشيطان يتذمر. بالنسبة لسائق عربة

متعثر، فإن التذمر شيء واحد، ولكن الخروج من المأزق أفضل من ذلك. لقد أجهد الشيطان المسكين عقله وحلم. إنه زميل ذكي جدا، الذي أضاع حواء. يدخل في كل مكان عندما يريد، كما ينزلق إلى الحب، ينزلق إلى السماء. لقد حافظ على علاقاته مع القديس قبريانوس الساحر، وفي بعض الأحيان يعرف كيف يجعل نفسه محبوباً من القديسين الآخرين، تارةً بإسداء خدمات صغيرة غامضة لهم، وتارةً أخرى بقول أشياء لطيفة لهم. هذا العالم العظيم يعرف كيف يصنع محادثة ترضي الجميع. لقد أخذهم جميعًا من جانبهم الضعيف. يجلب للقديس روبرت من يورك لفائف الشوفان بالزبدة. يتحدَّث عن الصياغة مع القدِّيس إيلوي، وعن الطبخ مع القدِّيس ثيودوت. يتحدث إلى الأسقف المقدس جيرمان عن الملك تشايلدبيرت، وإلى رئيس الدير المقدس واندريل عن الملك داغوبيرت وإلى الخصي المقدس أوستازاد عن الملك سابور. ويتحدث إلى القديس بولس البسيط عن القديس أنطونيوس، ويتحدث إلى القديس أنطونيوس عن خنزيره. ويكلم القديس لو عن زوجته بيمينيول، ولا يكلم القديس جومر عن زوجته جوينماري. لأن الشيطان هو المتملق العظيم. قلب من مرارة وفم من عسل.

غير أنّ أربعة قدّيسين معروفين بصداقتهم الحميمة: القدّيس نيل المنفرد، والقدّيس أوثوروني والقدّيس يوحنّا القزم والقدّيس مدرد، كانوا قد ذهبوا في ذلك اليوم بالذات للتنزّه على شواطئ البحر الأحمر. وعندما اقتربوا من بستان النخيل، رآهم الشيطان قادمين نحوه قبل أن يروه. أخذ على الفور هيئة رجل عجوز مسكين ومكسور جداً وبدأ يصرخ. اقترب القدّيسون. - فقال القديس نيل: "ما هذا؟

- صرخ الشيطان قائلاً: "واحسرتاه، واحسرتاه، يا سادتي الأبرار"، "تعالوا إلى معونتي، أتوسل إليكم. إن لي سيدًا شريرًا جدًا، أنا عبد مسكين، لي سيد شرير جدًا وهو تاجر من بلاد فاس. وأنتم تعلمون أن جميع أهل فاس والمغاربة والنوميديين والقرامطة وجميع سكان البربر والنوبة ومصر أشرار وميالون إلى النساء والجماع، متهورون وخاطفون ومجازفون وقساة بسبب كوكب المريخ. والأدهى من ذلك أن سيدي رجل معذب بالصفراء السوداء والصفراء الصفراء والغدة النخامية؛ ومن ثم فهو بارد جاف كئيب، يجعله خجولاً خائفاً يفتقر إلى الشجاعة ولكنه كثير الاختراع للشر. وهذا ما يقع علينا نحن العبيد المساكين، وعليّ أنا أيها الشيخ المسكين.

- قال القديس أوتريموين باهتمام: "ما الذي ترمي إليه يا صديقي؟

- أجاب الشيطان: "هناك، يا سيدي الطيب. مسافر عظيم. لديه هوس. فأينما حلّ يحب أن يبني جبلاً في حديقته من الرمال التي يجمعها من شاطئ البحر الذي يستقر بالقرب منه هذا الشرير. فقد بنى في زيلاند كومة من الرمال السوداء الموحلة؛ وفي فريزلاند كومة من الرمال الخشنة الممزوجة بالأصداف الحمراء ومنها مخروط النمر؛ وفي شيرسونيز الكمبري التي تسمى الآن جوتلاند كومة من الرمال الناعمة الممزوجة بالأصداف البيضاء ومنها تين شروق الشمس.

- ليأخذك الشيطان!" فقاطعه القديس نيل، وهو بطبيعته غير صبور. تعال إلى صلب الموضوع. لقد أهدرت ربع ساعة في الاستماع إلى هراء. أنا أعد الدقائق.

انحنى الشيطان بتواضع: - هل تعد الدقائق يا مولاي؟ إنه ذوق نبيل. لابد أنك من أهل ميدي؛ لأن أهل ميدي أبرع من أهل الرياضيات وأخلصهم في الحساب، لأنهم أقرب من غيرهم من سائر الناس إلى دائرة النجوم الهائمة. ثم قال فجأة وهو يجهش بالبكاء ويضرب صدره بقبضته: - وا أسفاه! وا أسفاه! أيها الأمراء الطيبون، إن لي سيداً قاسياً جداً. فلكي يبني جبله يجبرني، أنا الرجل العجوز، على أن آتي كل يوم لأملأ هذا الكيس من الرمل على البحر.

يجب أن أحمله على كتفي وبمجرد أن أقطع رحلة، أبدأ من جديد، ويستمر هذا من الفجر حتى غروب الشمس. إذا أردت أن أرتاح، إذا أردت أن أنام، إذا استسلمت للتعب، إذا لم يمتلئ كيس النبيذ تمامًا، يجلدني. واحسرتاه، أنا بائس ومضروب ومبتلى بالعلل. لقد قمت البارحة بست رحلات في النهار؛ وفي المساء كنت متعباً جداً حتى أنني لم أستطع أن أرفع إناء النبيذ الذي ملأته للتو إلى ظهري؛ وقضيت الليل كله هنا وأنا أبكي بجانب حملي وخائف من غضب سيدي. يا سادتي، يا سادتي الأبرار، بنعمة الله ورحمته، ساعدوني على أن أضع هذا الحمل عن كاهلي حتى أرجع إلى سيدي، لأني إن تأخرت قتلني. آه! آه !آه! آه تأثّر القدّيس نيل والقديس أوترموان والقديس يوحنا القزم، وهم يستمعون إلى هذا النداء المثير للشفقة، وبدأ القديس ميدرارد بالبكاء فأمطرت الأرض أربعين يومًا. لكن القديس نيل قال للشيطان: "لا أستطيع أن أساعدك يا صديقي وأنا آسف؛ لكن عليك أن تضع يدك على هذا القربان الذي هو شيء ميت، وآية من الكتاب المقدس تحرم لمس الأشياء الميتة لئلا تبقى نجسة. قال القديس أوترموان للشيطان: "لا أستطيع مساعدتك يا صديقي وأنا آسف؛ ولكنني أعتبر أن ذلك سيكون

عملاً صالحًا، وبما أن الأعمال الصالحة لها عيب تشجيع الغرور فيمن يقوم بها، فأنا أمتنع عن القيام بها لكي أحفظ تواضعي.

قال القديس يوحنا للشيطان: "لا أستطيع أن أساعدك، يا صديقي، وأنا آسف؛ ولكن، كما ترى، أنا صغير جدًا بحيث لا أستطيع أن أصل إلى حزامك. كيف يمكنني أن أضع هذا الحمل على كتفيك؟ فقال القديس ميدارد وهو يبكي: لا أستطيع مساعدتك يا صديقي، وأنا آسف؛ ولكني كما ترى متأثر جداً لدرجة أن ذراعيّ قد انكسرتا. وواصلوا طريقهم. استشاط الشيطان غضبًا.

- "يا لهم من حيوانات!" صرخ وهو يشاهد القديسين يبتعدون. إنهم سخفاء بلحاهم الكبيرة! كلمة شرف، إنهم أغبى من الملاك! عندما يغضب أحدنا، فإنه على الأقل لديه الحيلة لإرسال الشخص الذي يغضبه إلى الشيطان. ليس للشيطان مثل هذا اللطف. فبينما كان يشتم، وهو يثبِّت عينيه المليئتين باللهب والغضب على السماء، عدوّه، رأى بقعة سوداء في السحاب. كان رجلاً - كان فارسًا مسلّحًا ومرتديًا خوذة - كان مسيحيًا يحمل الصليب الأحمر على صدره - الذي سقط على ركبتيه. - صرخ إبليس وهو يقفز من الفرح. لقد أُنقذت. ها قد جاء مسيحي! لم أستطع أن أهزم أربعة قديسين، لكن الشيطان هو الذي لم يستطع أن يهزم رجلاً واحدًا. في تلك اللحظة، خطا بيكوبان على

الشاطئ بلطف، ثم خطا إلى الشاطئ. ولما رأى الرجل العجوز الذي كان هناك كالعبد يستريح إلى جانب حمولته، سار نحوه وقال:

- من أنت أيها الصديق وأين أنا؟ أنت عند البحر الأحمر يا مولاي وأنا أشقى الأشقياء. وبذلك أنشد للفارس نفس النشيد الذي كان ينشده للقديسين، متوسلاً إليه أن يساعده في حمل الخمر على ظهره. هز بيكوبان رأسه:

- أيها الرجل الطيب، هذه قصة غير محتملة.

- فأجابه الشيطان: "يا سيدي الطيب الذي سقط من السماء"، أما قصتك أنت فأقل من ذلك، ومع ذلك فهي حقيقية.

- قال بيكوبان: "هذا صحيح".

- "ثم تابع الشيطان: "ماذا تريدني أن أفعل حيال ذلك؟ إذا كانت مصائبي لا تبدو جيدة، فهل هذا خطئي؟ إنني لا أستطيع أن أخترع، فأنا لا أخترع، و إنما عليَّ أن أختلق أنيني بمغامراتي ولا أستطيع أن أضع الحقيقة إلا في قصتي. مثل اللحم، مثل الحساء.

- أوافقك الرأي."

- ثم تابع الشيطان: "ما الذي يضيرك أيها الشاب الشجاع أن تساعد عجوزاً مسكيناً كسيحاً على ربط هذا الكيس على كتفي؟

بدا ذلك حاسماً بالنسبة لبيكوبان. فانحنى ورفع المنديل عن الأرض، وتركه يفعل ذلك دون صعوبة، ثم حمله بين ذراعيه واستعد لوضعه على ظهر الرجل العجوز الذي كان منحنياً أمامه. لحظة أخرى وانتهى الأمر. إن للشيطان رذائل، وهذه هي مشكلته. إنه جشع. في تلك اللحظة، خطرت له فكرة ضم روح بيكوبان إلى الأرواح الأخرى التي كان سيأخذها؛ ولكن لكي يفعل ذلك، كان عليه أولاً أن يقتل بيكوبان. فبدأ ينادي بصوت خافت على روح خفية يأمره بكلمات غامضة أن يفعل شيئًا ما. يعلم الجميع أن الشيطان عندما يتحدث ويتخاطب مع الشياطين الآخرين، فإنه يتحدث بلغة نصفها إيطالي ونصفها الآخر إسباني. هنا وهناك يقول أيضًا بعض الكلمات اللاتينية. وقد تم إثبات ذلك وتثبيته بوضوح في عدة لقاءات، وعلى وجه الخصوص في محاكمة الدكتور أوجينيو تورالفا التي بدأت في بلد الوليد في 10 يناير 1528 وانتهت في 6 مايو 1531 بإعدام الطبيب المذكور. كان بيكوبان يعرف الكثير من الأشياء. فقد كان، كما قلت، فارساً بارعاً يستطيع أن يتصدى بشجاعة للمناظرة. كان لديه رسائل. كان يعرف لغة الشيطان. والآن، وبينما كان يربط منديل النبيذ على كتفه، سمع العجوز المنحني يقول بهدوء: باموس، لا سييرا أوتشي، فيربرا، فرابا، وإيشا لا بيدرا. كان هذا

كالصاعقة بالنسبة لبيكوبان. راودته شبهة. فنظر إلى أعلى فرأى فوقه حجرًا ضخمًا يحمله عملاق غير مرئي.

وألقى بيكوبان بنفسه إلى الوراء، ولمس التعويذة بيده اليسرى، وأمسك خنجره بيمناه واخترق الغمد بعنف وسرعة هائلين، كأنه الزوبعة التي تمر وتطير وتلتف وتلمع وترعد وتضرب بالبرق في نفس الثانية. أطلق الشيطان صرخة عالية. فهربت الأرواح المسلمة من المخرج الذي فتحه لها خنجر بيكوبان لتوه، تاركاً في جلد الخمرة سوادها وجرائمها وشرورها، كومة بشعة، ثؤلولاً بغيضاً انغرس في نفسه بجاذبية الشيطان نفسه، وظل مغطى بجلد جلد الخمرة ثابتاً إلى الأبد بين كتفيه. ومنذ ذلك اليوم، أصبح أسموديوس أحدب الظهر. ومع ذلك، بينما كان بيكوبين يسقط إلى الوراء، أسقط العملاق الخفي حجره الذي سقط على قدم الشيطان وسحقها. ومنذ ذلك اليوم، أصبح أسموديوس أعرج.

1842

Gustave Flaubert

(1821 – 1880)

غوستاف فلوبير

حلم الجحيم

1

كانت الأرض تنام نوماً عميقاً لا صوت على سطحها، وكل ما يمكن سماعه هو زبد المحيط المتكسر فوق الصخور. صرخ البوم في أشجار السرو، وزحفت السحلية التي يسيل لعابها فوق القبور، وانقض النسر على العظام البالية في ساحة المعركة. كان المطر الغزير يحجب ضوء القمر المريب، الذي كانت السحب الرمادية تتدحرج فوقه وتتدحرج فوق السماء اللازوردية. وكانت رياح العاصفة تحرك الأمواج وتهز أوراق الغابة؛ وكانت تصفر في الهواء، تارة صاخبة وتارة ناعمة، كأنها صرخة عالية النبرة تسيطر على الهمهمات. وخرج صوت من الأرض وقال: "لقد انتهى العالم، فلتكن هذه آخر ساعاته!

- لا، لا، يجب أن تدق كل الساعات.

- عجلوا بها"، قال الصوت الأول. أبيدوا الإنسان في فوضى سابعة ولا تخلقوا عوالم أخرى.

- هناك عالم آخر، أسمى من هذا العالم.

- أجاب الصوت القادم من الأرض: "تقصد أكثر بؤسًا". أوه، انتهى، من أجل مخلوقاتك؛ بما أنك فشلت حتى الآن في كل مساعيك، على الأقل لا تفعل شيئًا من الآن فصاعدًا.

- أَجَابَ الصَّوْتُ مِنَ السَّمَاءِ: "نَعَمْ، نَعَمْ، نَعَمْ: "إِنَّ الْبَشَرَ الآخَرِينَ قَدْ شَكَوْا ضَعْفَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَهَذَا سَيَكُونُ قَوِيًّا وَبِلاَ أَهْوَاءٍ. أما روحه... هنا ضحك الصوت القادم من الأرض ضحكة مدوية ملأت الهاوية بازدرائها الهائل.

2

- كان الدوق آرثر دالماريز كيميائياً، أو على الأقل كان يتظاهر بأنه كيميائي، مع أن خدمه لاحظوا أنه نادراً ما كان يعمل، وأن أفرانه كانت دائماً رماداً لا يشتعل، وأن كتبه نصف المفتوحة لم تكن تتغير أوراقها أبداً، ومع ذلك فقد كان يقضي أياماً وليالي وشهوراً كاملة دون أن يغادر معمله، غارقاً في تأمل عميق، كرجل يعمل ويتأمل. وظن الناس أنه كان يبحث عن الذهب، إكسير الحياة الطويلة، حجر الفلاسفة. ولذلك كان رجلاً بارداً جداً من الخارج، خادعاً جداً في مظهره: لم تكن على شفتيه ابتسامة سرور أو كلمة ألم، ولم تخرج من فمه صيحة من صراخ أو صخب، ولم تكن لياليه محمومة متقدة

كليالي الرجال الذين يحلمون بشيء عظيم؛ وكان المرء إذا رآه على هذا القدر من الجد والبرود يظن أنه رجل آلي يفكر كالرجال. كان الناس (لأنه يجب أن يُستشهد به في كل مكان، هو الذي أصبح الآن أقوى القوى وأقدس الأشياء، وهما كلمتان تبدوان متنافرتين إلا عند الله: القداسة والقوة)، كان الناس مقتنعين بأنه ساحر، شيطان، شيطان متجسد. إنه هو الذي كان يضحك في المساء عند المنعطفات في المقبرة، وهو الذي كان يتسلل ببطء على طول المنحدرات وهو يطلق صرخات البومة؛ وهو الذي شوهد يرقص في الحقول مع الحوريات؛ وهو الذي شوهدت شخصيته المظلمة الكئيبة في ليالي الشتاء تحوم فوق الإقطاعية القديمة مثل أسطورة دموية قديمة فوق أطلال قبر. وغالباً ما كان الفلاحون الجالسون أمام أبوابهم في المساء، عندما كانوا يستريحون من يومهم بغناء بعض الأغاني الريفية القديمة، بعض الألحان الوطنية القديمة التي تعلموها من أجدادهم وورثوها لأبنائهم، والتي تعلموها في شبابهم وغنوها وهم صغار على قمة الجبل حيث كانوا يقودون ماعزهم للرعي, ثم، في تلك الساعة من الراحة حين يبدأ القمر في الظهور، وحين يرفرف الخفاش حول الشاهق بطيرانه المتفاوت، وحين يسقط الغراب على الشاطئ، في أشعة الشمس الشاحبة المحتضرة، في تلك اللحظة التي أقول،

في تلك اللحظة التي كان يظهر فيها الدوق آرثر أحياناً. ثم سكتوا حين سمعوا صوت وقع أقدامه، وازدحم الأطفال حول أمهاتهم، ونظر إليه الرجال بدهشة؛ لقد أفزعتهم تلك النظرة الرصاصية، وتلك الابتسامة الباردة، وذلك الوجه الشاحب، و إذا لمس أحد يديه وجدهما باردتين كجلد الزاحف. ومر سريعاً بين الفلاحين الذين سكتوا عند اقترابه، واختفى سريعاً وتوارى عن الأنظار، سريعاً كالغزال، خفياً كالحلم الرائع، كالظل، وشيئاً فشيئاً خفت صوت خطواته على التراب ولم يبق من أثر لمروره وراءه إلا الخوف والرعب، كالشحوب بعد العاصفة.

ولو أن أحداً كان جريئاً بما فيه الكفاية ليتبعه في سباقه المجنح ليرى إلى أين يقوده هذا السباق، لرآه يدخل إلى القلعة القديمة المتهدمة، التي لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منها في المساء، إذ كانت تسمع في ثغرات الأبراج صوتاً غريباً ضائعاً وفي الليل كان هناك شبح أسود عظيم يتجول بانتظام، يمد ذراعيه العريضتين نحو السماء ويهز حجارة القلعة بيديه العظميتين بصوت السلاسل وحشرجة الموت لرجل يحتضر. حسناً، هذا الرجل الذي كان يبدو جهنمياً ورهيباً جداً، والذي بدا وكأنه ابن الجحيم، وفكر شيطان، وعمل كيميائي ملعون، والذي بدت شفتاه المتشققتان لا تنفرجان إلا عند اللمسة

الطازجة للدم، والذي كانت أسنانه البيضاء تنفث رائحة اللحم البشري، حسناً، هذا الكائن الجهنمي، لم يكن مصاص الدماء القاتل هذا إلا روحاً طاهرة وسليمة، باردة وكاملة، لا متناهية ومنتظمة، مثل تمثال من الرخام يفكر ويتصرف وله إرادة وقوة وروح باختصار، ولكن دمه لا ينبض بحرارة في عروقه، ويفهم بلا شعور، وله ذراع بلا فكر، وعينان بلا عاطفة، وقلب بلا حب. كل ذلك من أجل الفكر، من أجل النشوة، ولكن نشوة مبهمة غير محددة المعالم، تغتسل في السحاب، وتشرق في القمر، وتتعلق بالغريزة والتكوين كما يتعلق العطر بالأزهار. وكان رأسه جميلاً، وعيناه جميلتين، وشعره طويلاً يتمايل على كتفيه في انسياب لازوردي طويل، وهو ينحني وينثني على ظهره الممدود الذي كان جلده الفضي الأبيض كالحرير ناعماً كالحرير أبيض كالقمر. وكانت المخلوقات الأخرى التي كانت أمامه لها أهواء وجسد وروح، وكانت كلها تتصرف متزاحمة في زوبعة من نوع ما، يندفع بعضها في بعض، ويتدافعون، ويتدافعون؛ وكان بعضهم يرفع بعضاً، ويدوس بعضهم الآخر تحت الأقدام؛ وكان كل البشر الآخرين في النهاية قد تزاحموا وتكدسوا وتقلبوا في هذا الركب الهائل، في هذه الصرخة الطويلة من الكرب، في هذا المستنقع الهائل الذي يسمى الحياة. أما هو، وهو روح سماوي، هبط إلى

الأرض كآخر كلمة من كلمات الخليقة، كائن غريب وفريد، وصل إلى وسط الناس دون أن يكون إنساناً مثلهم، له أجسامهم بإرادتهم، وأشكالهم، وكلامهم، ونظراتهم، ولكنه من طبيعة أرقى، وقلب أسمى لا يطلب إلا العواطف ليغذي بها نفسه، وهو الذي كان يبحث عنها في الأرض حسب غريزته فلم يجد إلا البشر، فماذا كان يأتي ليفعل؟ لقد كان منكمشاً، مهترئاً، متهالكاً، بعاداتنا وغرائزنا. هل كان ليفهم ملذاتنا الجسدية وهو الذي لم يكن له إلا مظهر الجسد، هل كانت أحضان المرأة الدافئة وذراعاها المبللتان بالعرق ودموعها من الحب، وحلقها العاري لتجعل منه خفقاناً ذات صباح، وهو الذي وجد في أعماق قلبه علماً لا نهائياً، عالماً هائلاً؟

ملذاتنا المسكينة، أشعارنا التافهة، بخورنا، العالم كله بمباهجها ومباهجها، ماذا فعل كل ذلك به وهو الذي كان فيه شيء من الملائكة؟ لقد كان هو أيضًا ضجرًا على هذه الأرض، ولكن بنوع من الضجر الذي ينهشك كالسرطان، يحرقك ويمزقك وينتهي بك إلى الانتحار. لكن هو، الانتحار؟ آه، كم من المرات التي وقف فيها على الجرف العالي، ينظر بضحك مرير إلى الموت الذي كان ماثلاً أمامه، يضحك في وجهه ويعنفه فراغ الفضاء الذي أبى أن يبتلعه! كم مرة تأمل فوهة المسدس طويلاً ثم ألقاه بعيداً في غيظ، وهو غير

قادر على استعماله لأنه محكوم عليه بالحياة! آه، كم مرة أمضى ليالٍ كاملة يمشي في الغابة، يستمع إلى صوت الأمواج على الشاطئ، ويشم رائحة عشب البحر الذي يسوّد الصخور! وكم من الليالي التي قضاها متكئاً على صخرة من الصخور وهو يحدق في سعة السماء وعقله يحلق في الفضاء! ولكن كل هذه الطبيعة، البحر، والغابة، والسماء، كانت كلها صغيرة بائسة؛ وكانت الأزهار لا تحس شيئاً على شفتيه، وكانت المرأة عارية لا جمال فيها، والأغنية بلا نغم، والبحر بلا رعب. لم يكن هناك ما يكفي من الهواء لصدره، ولم يكن هناك ما يكفي من النور لعينيه، ولم يكن هناك ما يكفي من الحب لقلبه. الطموح؟ العرش؟ المجد؟ لم يفكر في ذلك أبداً. العلم؟ الماضي؟ ولكنه كان يعرف المستقبل، ولم يجد في ذلك المستقبل إلا شيئاً واحداً جعله يبتسم من حين إلى حين وهو يمر بمقبرة. هل كان سيخاف الله، وهو الذي كان يشعر بأنه يكاد يساويه، وهو الذي كان يعلم أنه سيأتي يوم يأخذ العدم هذا الإله كما سيأخذه هذا الإله يوماً ما. هل كان سيحبه وهو الذي أمضى قروناً عديدة وهو يلعنه؟ بئس القلب المسكين كم عانيتَ أيها القلب المسكين من خجل وحرج، ونزحتَ عن مجالك، وانكمشتَ في دنياك كما تنكمش الروح في الجسد. وكثيراً ما كانت الغريزة الساخرة من نفسه تقرب الكأس إلى

شفتيه، فيداعب الخمر شفتيه دون أن تبتسم له ابتسامة توسعهما، ثم يدرك أنه قد فعل شيئاً رديئاً لا فائدة منه؛ فيأخذ وردة ثم يسحبها بسرعة كالشوكة. وفي يوم من الأيام أراد أن يكون موسيقاراً، وكانت لديه فكرة سامية وغريبة ورائعة، فكرة ربما لم يفهمها الرجال، ولكن موتسارت كان سيلعن نفسه من أجلها، فكرة عبقرية، فكرة جحيم، فكرة تبعث على المرض، فكرة تهيج وتهيج وتقتل. وبدأ هو، والجمهور المذهول يدوسون بأرجلهم ويصرخون بحماس، ثم سجدوا على حجارة الرصيف وهم صامتون مرتجفون يستمعون. وارتفعت الأصوات النقية الندية في صحن الكنيسة وتاهت تحت الأقبية؛ ولم يكن ذلك إلا مقدمة. أراد أن يكمل، لكنه كسر الأرغن بين يديه. لم يكن له شيء الآن؛ كان كل شيء فارغاً وأجوف؛ لا شيء سوى الملل الهائل، والعزلة الرهيبة، ثم قرون أخرى يعيشها، وهو الذي لم يكن له حاجات ولا عواطف ولا رغبات! لكن كان لديه يأس!

3

- واستسلم، وأعطته طبيعته المتفوقة الوسيلة إلى ذلك؛ فذهب ليعيش وحيداً منعزلاً في قرية من قرى ألمانيا، بعيداً عن الرجال الذين كان يعولهم. قلعة مهدمة على تل مرتفع بدت له مكاناً مناسباً للإقامة، وفي ذلك المساء انتقل إليها. وهكذا عاش وحيداً، بلا حاشية، وبلا رفاق، وبلا عدة، وبلا خدم تقريباً، وانغلق على نفسه، وقصر جلسته على نفسه؛ وهكذا كان اسمه يكتسب كل يوم وجوداً أكثر إشكالاً، أما الذين كانوا يخدمونه فكانوا لا يعرفون من صوته شيئاً، ولا يعرفون من نظراته غير عينين نصف مغمضتين تنظران إليهم ببرود فترتعد فرائصهم؛ أما الباقون فكانوا أحراراً تماماً، أي أن سيدهم لم يكن يعاتبهم قط، وقلما كان يصدر إليهم أوامر. وكانت الجدران المسودة، والحجارة الخالية من الإسمنت، والعليق الذي يحيط بها، والجانب الصامت الذي يخيم على أبراجها، كل ذلك كان فيه شيء من الغرابة. في الداخل كان الأمر أسوأ من ذلك: ممرات طويلة مظلمة، وأبواب تصفق بعنف في الليل وتهتز في إطاراتها، ونوافذ ضيقة عالية، وألواح خشبية ذات دخانية، ثم من مكان إلى آخر، في الأروقة، بعض الحلي العتيقة، درع لبارون قديم، صورة كاملة الطول لأميرة، قرن ظبي, أو سكين صيد، أو خنجر صدئ، وفي

كثير من الأحيان، في بعض الزوايا المظلمة، ركام وجص سقط من سقف الصالون القديم عندما كانت الرياح، في مساء يوم شتاء، تهب في الأروقة الطويلة بعنف أكثر من المعتاد، وبزئير أكثر طولاً. وكان الناظر (وكان رجلاً عجوزاً متهالكاً كالقلعة نفسها) يقوم بجولاته كل يوم بعد الظهر؛ وكان يبدأ بالدرج الحجري العظيم الذي أزيلت سلاليمه منذ باعه المالك الأخير بفدان من الأرض؛ وكان يصعده ببطء، وعندما يصل إلى الرواق الرئيسي يفتح جميع الغرف، وكلها تحمل أرقامها القديمة، وكلها فارغة متهالكة، رغم أن لها غرضها واستعمالها. وكانت هنا غرفة الرسم القديمة، وهي مسطح مربع ضخم لا تزال ترى فيه بعض قطع من المخمل القرمزي الذي كان في القرن الماضي قد جعله زخرفاً فاخراً وجمالاً جديداً؛ وكانت أولها غرفة المنقوشة، ثم المصلى، ثم غرفة الرسم. وكان باقي الصالون مشغولاً بكراسي قديمة وسروج بالية وبضعة سروج أكلها الدود وكمية كبيرة من الحطب والخشب الجاف. ولم يكن البواب يفتحه قط، إلا ليدفع فيه شيئاً قديماً مكسوراً، فيرميه بلا مبالاة فيوشك أن يسقط على لوحة قديمة أو تمثال حديقة أو كراسي بالية. وكان يستأنف خطواته البطيئة الهادئة في وسط الممر محدثاً صدى صوت حذائه على الألواح الحجرية العريضة التي كانت لا تزال تحمل

أثر خطواته، ثم يعود إلى الوراء وهو يراقب أعشاش السنونو التي كانت تستقر يوماً بعد يوم في القلعة كما لو كانت في مجالها الخاص، والتي كانت تتطاير ذهاباً و إياباً عبر نوافذ الممر التي كانت جميع ألواحها ملقاة على الأرض مكسورة ومبعثرة مع إطاراتها من الرصاص.

كانت أشجار الحور الطويلة تصطف على جانبي القلعة؛ وكثيراً ما كانت تنحني لأنفاس المحيط الذي اختلط صوت أمواجه مع صوت أوراقها، وقد احترق لحاءها بفعل الهواء القاسي. ومن خلال ثقب في أوراق الشجر كانت أعلى النوافذ تطل على البحر الهائل الرهيب الممتد أمام هذه القلعة المشؤومة، والتي بدت وكأنها إحدى امتيازاتها الكئيبة. هنا كانت الأسوار، ولكنها كانت ترتجف تحت اليد، وعند أقل اصطدام تسقط الحجارة؛ وفي الأعلى، كان هناك الحصن الذي لم يذهب إليه الناظر أبداً، لأنه كان قد تركه كما ترك الطوابق العليا للخفافيش والبوم التي كانت ترفرف على الأسطح في المساء بصراخها الحزين وأجنحتها الطويلة التي ترفرف. كانت جدران القلعة متشققة ومغطاة بالطحالب، وكان هناك شيء رطب ودهني يضغط على الصدر ويجعلك ترتجف؛ كان ذلك يشبه الآثار اللزجة للزواحف. كان هذا هو المكان الذي عاش فيه. كان يحب تلك الأقبية الطويلة الممتدة حيث

لا تسمع إلا طيور الليل ونسيم البحر؛ كان يحب هذه الحطام المدعوم باللبلاب، وهذه الممرات المظلمة وكل هذا المظهر من الموت والخراب؛ هو الذي كان قد سقط من علو شاهق لينزل إلى أسفل سافل أحب شيئاً قد سقط أيضاً؛ هو الذي كان خائباً أراد الخراب، هو الذي كان يريد الخراب، هو الذي وجد العدم في الأبدية، هو الذي أراد الفناء في الزمن. كان قد وجد العدم في الأبدية فأراد الدمار في الزمن، كان وحيداً في وسط البشر، كان يريد أن ينأى بنفسه عنهم تماماً ويعيش على الأقل تلك الحياة التي يمكن أن تشبه ما كان يحلم به، ما كان ينبغي أن يكون عليه.

4

كان الدوق آرثر جالساً على كرسي كبير من الجلد المغربي الأسود، وقد وضع مرفقه على طاولته ورأسه بين يديه. كانت الغرفة التي كان يسكنها كبيرة وواسعة، وكان سقفها مسوداً من دخان الفحم؛ أما الألواح فقد أخفاها كم هائل من الأواني الفخارية والقدور والمزهريات والمربعات والأدوات المصفوفة على الرفوف.

وكان في إحدى الزوايا الفرن وفي إحدى زواياه البوتقة الخاصة بالعمليات السحرية؛ ثم هنا وهناك، على الرماد الذي لا يزال ساخناً، بضعة كتب نصف مفتوحة، وبعض صفحاتها نصف ممزقة، بدت كما لو أن يداً محمومة محترقة قد لمستها ونظرت فيها بعين متلهفة لم تقرأ فيها شيئاً. ولم يكن هناك ضوء في الشقة، وكان بعض الفحم المحتضر في الفرن يلقي وهجاً خافتاً على السقف. وظل الكيميائي ساكناً لفترة طويلة: وأخيراً نهض وذهب إلى بوتقته ونظر إليها برهة من الزمن. وفجأة أضاء وهج الفحم المحمر وجهه، ولونه بإشراق رائع. لقد كانت جبهته الشاحبة من جباه الكيميائيين الجهنميين، وعيناه الجاحظتان المحمرتان المجوفتان، وجلده الأبيض المشدود ويديه النحيفتين الممدودتين، وكلها تشير إلى ليالٍ ساهرة وأحلام ملتهبة وأفكار عبقرية. أتظن أن ابتسامة المرارة هذه هي ابتسامة الغرور، أتظن أن هذه الخدود الجوفاء قد رقت على الكتب، وأن بشرته قد ابيضت بحرارة الفحم، وأن هذا الرجل الذي لو كان شاباً لبكى من الغيظ، يبحث الآن عن اسم، عن خلود؟ أتظن أن هذه الكتب الملقاة في غيظ، وهذه الصفحات الممزقة، وهذه اليد التي تقبض على بعضها وتدمع، أتظن أنه يائس لأنه لم يجد ذرة من ذهب، أو سماً يحيا به؟ كان على وشك أن يعود إلى مكانه حين رأى على الحائط

المسود خطوطاً لامعة بارزة على الجدار الذي كان مسوداً وقد تحددت معالمها بقوة، وسرعان ما شكلت وحشاً بشعاً وفريداً يشبه تلك الحيوانات التي نراها على أروقة كاتدرائياتنا جائعة لها جوانب مجوفة ورأس كلب وحلمات تتدلى إلى الأرض وشعر أحمر وعينان تتقدان ومخالب ديك. وفجأة انفصل عن الحائط ووثب على التنور، وسُمع صوت مخالبه الرقيقة المغزلية على أحجار البوتقة.

- قال لآرثر: ماذا تريد مني؟

- أنا؟ لا شيء! ولكن ألست أنت الروح اللعينة التي تفقد الرجال وتعذب أرواحهم؟

- قال الوحش بصرخة من الفرح: بلى، أنا إبليس.

- ما الذي تريده مني؟ ما الذي جئت من أجله؟

- لمساعدتك.

- ولفعل ماذا؟

- للعثور على ما تبحث عنه، الذهب، الإكسير.

- !أجل، حقاً ألا تعلم أنني أستطيع أن أعيش في العوالم، وأن فكرة من رأسي يمكن أن تجعل الذهب يتدحرج تحت قدمي؟ لا، أيها الشيطان، إذا كان هذا هو كل ما تملكه من قوة، فاتركني، اهرب، لأنك لا تستطيع أن تخدمني.

- لا، لا، سأبقى"، قال الشيطان بابتسامة فريدة، "سأبقى! إن الغرور هو ابني البكر، إنه يعطيني روح كل من يأخذه، قال في نفسه: "سأحصل على روحه! وفي تلك اللحظة قذف الجمر المحتضر ببضع صفائح أخرى من الضوء، فمرت على وجه آرثر، فبدا لإبليس أجمل وأفظع من وجه الملعونين بل من أجملهم.

- قال آرثر: "تعالوا نخرج من هنا، فالرياح تهز الأشجار، والبحر يهدر والشاطئ مدمّر. تعالوا لنتحدث عن الخلود والعدم في صوت العاصفة قبل أن تهب عاصفة المحيط. خرجوا. كان الطريق المؤدي إلى الشاطئ صخرياً مظللاً بالأشجار السوداء الطويلة التي تحيط بالقلعة. كان الجو باردًا، والأرض جافة وقاسية؛ كان الجو مظلمًا، لا توجد نجمة في السماء، ولا شعاع من ضوء القمر. كان آرثر يمشي ورأسه مكشوف ووجهه كذلك، وكان يمشي ببطء مستمتعًا بملمس شعره الأزرق الحريري الذي يلامس وجهه. كان يحب ارتطام الرياح والصوت الشرير للأشجار وهي تنحني بعنف. كان الشيطان

خلفهما يتخطى بخفة فوق الأحجار، ورأسه منحنيًا ويعوي بحزن. وأخيراً وصلا إلى الشاطئ، حيث كانت الرمال طازجة ورطبة، مغطاة بالأصداف وعشب البحر الذي تدحرج نحو البحر مع الحصى التي حملها المد والجزر. توقف كلاهما. ضحك آرثر بعنف على صوت الأمواج.

- قال: "هذا ما أحبه، أو بالأحرى هذا أقل ما أكرهه، لكن هذا الغضب ليس وحشياً بما فيه الكفاية، إلهياً بما فيه الكفاية. لماذا يتوقف البحر عن الارتفاع؟ آه! لو كان البحر يمتدّ إلى ما وراء الشاطئ والصخور، فكم كان سيذهب بعيدًا، وكيف كان سيجري وكيف كان سيقفز! لكان من دواعي سروري أن أراه، ولكن هذا.

- قال إبليس: "إذًا أنت تريد الموت، الموت في كل شيء؟

- أناشدك العدم.

- ولماذا، هل تعتقد أن لا شيء يبقى بعد الجسد، وأن العين المغمضة لا ترى وأن الرأس البارد الشاحب لا فكر فيه؟

- نعم أعتقد ذلك، على الأقل بالنسبة لي.

- وماذا تريدين؟ ماذا تريدين؟ ماذا تشتهين؟

- السعادة!

- ستحصل عليها في العلم، ستحصل عليها في المجد، ستحصل عليها في الحب.

- !لا مكان لقد بحثت عنها منذ زمن طويل، ولكني لم أجدها أبداً؛ فقد كان علمي محدوداً جداً، ومجدي ضيقاً جداً، وحبي تافهاً جداً. - إذن أنت تظن نفسك أسمى من الرجال الآخرين؟ تظن أن روحك...

- !روحي! روحي

- ألا تملك واحدة؟ ألا تؤمن بأي شيء؟ ولا حتى بالله؟ أوه، ستستسلم أيها الإنسان الضعيف المتغطرس، ستستسلم، لأنك رفضت عروضي؛ ستستسلم مثل الرجل الأول. كم كان يبدو فخوراً، كم كان متغطرساً ومعتداً بسعادته، عندما كان يسير في عدن، ويحدق بعينين غائرتين مندهشتين في هزيمتي ودموعي! ورأيته يستسلم أيضاً، رأيته يتذلل تحت قدمي، رأيته يبكي مثلي، ويلعن ويجدف مثلي؛ واختلطت صرخات يأسنا معاً، ومن ذلك الحين ونحن رفقاء في العذاب والعذاب.

أوه نعم، ستسقطين مثله، ستحبين شيئًا ما.

- أتحسبني يا إبليس إنساناً من تلك الكائنات المبتذلة التي تقبع في هذا العالم الذي قذفتني ريح البلاء في جنونه، والذي أموت فيه لعدم وجود هواء

أتنفسه، ولعدم وجود ما أشعر به وأفهمه وأحبه؟ هل تظن أن هذا الفم يأكل، وأن هذه الأسنان تطحن، وأنني مستعبد للحياة كوجه في قناع؟ لو كشفتُ عن هذا الجلد الذي يغطيني، لرأيتَ أنني أنا أيضًا، أيها الشيطان، واحد من تلك الكائنات الملعونة مثلك، وأنني مساوٍ لك وربما سيدك. أيها الشيطان، أيمكنك أن توقف موجة؟ أيمكنك أن تعجن حجرًا في يديك؟

- نعم. - أيها الشيطان، لو أردت ذلك لسحقتك بيدي أيضاً. أيها الشيطان، ما الذي لديك يجعلك متفوقًا على كل شيء آخر، ماذا لديك؟ هل هو جسدك؟ ضع رأسك على مستوى ركبتي وقدمي وسأسحقك على الأرض. ماذا لديك ما الذي يجعلك مجيدًا وفخورًا ومفتخرًا ومعتزًا بنفسك، ذلك الجوهر الذي يجعلك متفوقًا؟ ماذا لديك؟ أجب!

- روحي.

- وكم دقيقة في الأبدية تستطيع أن تعدها من الدقائق التي يمكن أن تعدها وقد منحتك هذه الروح السعادة؟

- أما أنا فحين أرى نفوس البشر تعاني مثل ما أعانيه أنا، فإن في ذلك عزاء لألمي، وسعادة ليأسي؛ أما أنت، فما الذي تملكه أنت، هل هو روحك؟

- لا! بل لأنني لا أملك روحًا.

- لا روح؟ إذن هو إنسان آلي بعثت فيه الحياة بوميض عبقري؟

- عبقري! أوه، عبقري! سخرية وشفقة! عبقري بالنسبة لي؟ آه!

- لا روح؟ ومن أخبرك بذلك؟

- من أخبرني؟ لقد خمنت ذلك... اسمع، وسترى عندما جئت إلى هذا العالم كان ليلاً، ليلة كهذه الليلة باردة ورهيبة. أتذكر أن الأمواج حملتني إلى الشاطئ... نهضت وسرت شعرت بالسعادة حينذاك، وكان صدري حراً طليقاً؛ وكان في أعماقي شيء نقي لم يمسه شيء، مما جعلني أحلم وأفكر في أفكار مشوشة غامضة غير محددة، وكان لي ما يشبه التذكر البعيد لموقف آخر، لحالة أهدأ وألطف؛ وبدا لي حين أغمضت عيني وأصغيت إلى البحر، أنني أعود إلى تلك المناطق العليا حيث كل شيء شعر وصمت وحب، وخيل إليّ أنني نمت نوماً متواصلاً. لقد كان هذا النوم ثقيلاً وغبياً، ولكن كم كان حلواً وعميقاً، بل إنني أذكر أنه مرت بي لحظة مر فيها كل شيء ورائي وتبخر كالحلم. عدت من حالة السُكر والسعادة إلى الحياة والضجر؛ وشيئاً فشيئاً اختفت تلك الأحلام التي كنت أظن أنني سأجدها مرة أخرى على الأرض مثل ذلك الحلم؛ وتقلص ذلك القلب، وبدت لي الطبيعة وقد أجهضتني، وقد بليت وشاخت، مثل طفل مزيف أحدب يحمل تجاعيد رجل عجوز. حاولت أن أقلد

الرجال، أن أحظى بعواطفهم واهتماماتهم، أن أتصرف مثلهم، ولكن عبثاً حاولت، كالنسر الذي يريد أن يعشش في عش نقار الخشب. ثم أظلم كل شيء أمام عيني، وأصبح كل شيء حجاباً أسود طويلاً، والوجود عذاباً طويلاً، والأرض قبراً يدفن فيه الناس أحياء، ثم عندما، بعد قرون عديدة، وأحقاب كثيرة، عندما رأيت أجناساً من البشر و إمبراطوريات تمر أمامي، لم أشعر بشيء يخفق في داخلي، عندما مات كل شيء وشُلَّ في ذهني، قلت لنفسي: "أحمق من يريد السعادة وليس له روح! أحمق من كان عقله عالياً جداً، وقلبه عالياً جداً، ومن كان يفهم العدم، ومن كان يفهم كل شيء، ومن كان لا يحب شيئاً، ومن كان يعتقد أن الجسد يسعدك وأن المادة تمنحك السعادة! صحيح أن هذه الروح سامية، وهذا الجسد جميل، وهذه المادة سامية، ولكن لا روح ولا إيمان ولا أمل!

- وأنت تشكو!" قالها الشيطان وهو يجر ثدييه على الرمال ويتمدد إلى أقصى طوله: "أنت تشكو! هنيئاً لك، بارك الله في السماء، على العكس، ستموت! أنت لا تشتهي شيئًا، يا آرثر، ولا تحب شيئًا، ولا تعيش سعيدًا، لأنك مثل الحجر، أنت لا تشبه شيئًا. آه! ما الذي تشكوه، ومن الذي يحزنك، ومن الذي يثقل عليك؟

- أشعر بالملل

- لكن ألا يمكن لجسدك أن يمنحك ملذات الرجال؟

- ملذات البشر، أليس كذلك؟ قبلاتهم الكبيرة، أحضانهم الدافئة؟ أوه، أنا لم أتذوقها أبداً، أنا أحتقرهم وأحتقرهم.

- لكن امرأة؟

- امرأة؟ آه! أود أن أخنقها بين ذراعيّ، وأسحقها بقبلاتي، وأقتلها بأنفاسي. أوه، أنا لا أملك شيئًا، أنت على حق، أنا لا أريد شيئًا، ولا أحب شيئًا، ولا أرغب في شيء... وأنت أيها الشيطان، أنت تريد جسدي، أليس كذلك؟

- جسد؟ أوه نعم، شيء محسوس، شيء يمكن أن يُشَمّ ويُرى، لأني لا أملك سوى شكل، نفس، مظهر. آه، لو كنت رجلاً، لو كان لي صدره العريض وفخذيه القويتين... أحسده وأكرهه وأغار منه. آه، ولكنني لا أملك إلا الروح، الروح، الروح، نفس عقيمة محترقة تلتهم نفسها وتمزق نفسها؛ الروح! ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لا أستطيع أن أفرش إلا القبلات، أن أشعر، أن أرى، أن لا أستطيع أن ألمس، لا أستطيع أن آخذ؛ لا أملك شيئاً، لا أملك شيئاً، لا أملك إلا الروح. آه، كم مرة جررت نفسي فوق جثث فتيات صغيرات لا تزال دافئة وساخنة! كم مرة عدت أدراجي يائساً

وكافراً! على الأقل له أفراحه وسعادته وعائلته؛ ورغباته محققة، وعواطفه مهدأة. هل تريد روحاً يا آرثر؟ روح! ولكن هل فكرت في ذلك حقا؟ أتريد أن تكون كالرجال؟ أتريد أن تبكي على موت امرأة، على ثروة ضائعة، أتريد أن ترق من اليأس، أن تسقط من الأوهام إلى الواقع؟ أتريد أن تكون روحاً، أتريد أن تكون روحاً، أتريد أن تكون روحاً، أتريد أن تكون رجلاً أتريد أن تؤمن أتريد أن تنحدر إلى الأمل؟ هل تريد أن تكون إنساناً، أكثر قليلاً من شجرة، وأقل قليلاً من كلب؟

- قال آرثر وهو يخطو في البحر: لا، لا أريد شيئاً! ثم سكت، وسرعان ما رآه إبليس يركض على الأمواج، ومضماره خفيف سريع، والأمواج تتلألأ تحت خطواته.

- قال إبليس في حقده الغيور: (آه!) (يا أرثر، يا سعيد، يا سعيد، إن لك في الأرض مللاً، ولكنك ستنام فيما بعد، وأنا سأكون في الأبدية يائساً، وحين أتأمل جثتك.

- جثتي؟" قال آرثر: "من أخبرك أنني سأموت؟ ألم أخبرك؟ أنا لا أتمنى شيئًا، ولا حتى الموت.

- أفظع الطرق...

- جربها"، قال آرثر الذي توقف للحظة على الموجة التي كانت تهزه بلطف، وكأنه واقف على لوح خشبي. وصمت إبليس طويلاً وفكر في الكيميائي: (لقد خدعته) قال لنفسه: (لقد خدعته) قال: (إنه لا يؤمن بروحه. أوه، ستحب، ستحب امرأة، ولكنني سأعطيها نعمة كثيرة، وجمالاً كثيراً، وحباً كثيراً، حتى أنه سيحبها... لأنه رجل رغم كبريائه وعلمه".

- اسمع يا آرثر، قال له: "اسمع يا آرثر، غدًا سترى فتاة من جبالك وستحبها.

ضحك آرثر. - قال: "أيها الأحمق المسكين" "سأجرب ذلك، أو حاول أن تقتلني إن كنت تجرؤ!

- لا، قال الشيطان: "لا، أنا لا أملك إلا القوة على الأرواح. وتركه. وكان آرثر قد بقي على الصخور، وعندما بدأ القمر في الظهور، فتح جناحيه الأخضرين الهائلين، وبسط جسمه الأبيض الثلجي وطار نحو السماء.

5

كان الوقت مساء، وكانت الشمس الحمراء المحتضرة بالكاد تضيء الوادي والجبال. كانت ساعة الشفق تلك الساعة التي ترى فيها الخيوط البيضاء في المروج، وقد تعلقت بشعر النساء وثيابهن من الدانتيل والأقمشة

الحريرية؛ وكانت تلك الساعة التي يغني فيها الزيز بصيحاته العالية النبرة في العشب وتحت الذرة. ثم تسمع أصواتاً غامضة في الحقول، وحفلات موسيقية غريبة، ثم تسمع من بعيد صوت جرس الباب الذي يهدأ ويتلاشى وتختفي الأشراب وتنزل. وفي مثل هذا الوقت من النهار تسرع المرأة التي ترعى الماعز والأبقار وتجري دون أن تلتفت إلى الوراء، ثم تتوقف بين الحين والحين وهي تلهث وترتجف لأن الظلام قد حلّ والرجال والشبان في الطريق، وهي في السادسة عشرة، المسكينة، وهي خائفة. وجمعت جولييتا أبقارها واتجهت نحو القرية التي يمكن أن ترى منها بضعة أكواخ، ولكنها في ذلك اليوم كانت حزينة، فلم تعد تركض لتقطف الزهور وتضعها في شعرها. لم تعد تقفز قفزات طفولية عند رؤية زهرة أقحوان جميلة كانت قدمها على وشك أن تسحقها، لم تعد تغني في ذلك اليوم أغاني الفرح، لم تعد تلك النغمات اللؤلؤية، تلك اللفات الطويلة؛ لا! لا مزيداً من الفرح ولا من النشوة، لا مزيداً من تلك الرقبة البيضاء الجميلة التي كانت تنحني إلى الوراء والتي كانت تخرج منها موسيقى خفيفة راقصة كلها دفء وانسجام، بل على العكس من ذلك تنهدات متكررة، وجو حالم، ودموع في عينيها، ومشي طويل حالم جداً وبطيء جداً وسط العشب، دون أن تلاحظ أنها تمشي في الندى وأن أبقارها

قد اختفت، هكذا كانت الفتاة الصغيرة غير مبالية وكئيبة. فكم من مرة في ذلك اليوم ركضت وراء قطيعها، وكم من مرة عادت لتجلس وقد أضناها الضجر والملل وتفكر، أو بالأحرى لا تفكر في شيء! لقد كانت مقهورة، وكان قلبها يحترق شوقاً إلى شيء مبهم غير محدد، وكان قلبها متعلقاً بكل شيء، تاركاً كل شيء، وكان فيه الملل والرغبة والحيرة؛ وكان الملل وأحلام الماضي وأحلام المستقبل كلها تمر برأس الطفلة وهي مستلقية على العشب وتنظر إلى السماء ويديها على جبينها. كانت تخشى أن تكون وحدها في وسط الحقول، ومع ذلك فقد قضت طفولتها هناك، تلعب في الغابة وتجري بين الحصاد؛ وكان صوت أوراق الشجر يجعلها ترتجف، ولم تكن تجرؤ على الالتفات إلى الوراء، وكان يبدو لها دائماً أنها ترى خلف رأسها صورة شيطان ما متجهم الوجه ضاحكاً ضحكة مرعبة.

وانتظرت حتى انتهى جرس الكنيسة من رنينه، وعندما ضاعت ذبذباته الأخيرة في البعيد، نهضت بصعوبة وركضت وراء قطيعها وانطلقت عائدة إلى منزل أبيها. وفجأة، وعلى بعد خمسين خطوة تقريباً، رأت نحو عشرين شعلة صغيرة تتصاعد من الأرض؛ واختفت النيران، ولكن بعد دقائق قليلة رأتها جولييتا مرة أخرى؛ واقتربت أكثر فأكثر، ثم اختفت واحدة، ثم أخرى،

فثالثة، وأخيراً الأخيرة التي قفزت وامتدت ورقصت بحيوية وجنون. وفجأة توقفت الأبقار، كأنما غريزة طبيعية تأمرها ألا تتقدم أكثر من ذلك، وأطلقت خواراً حزيناً استمر رتيباً لفترة طويلة ثم خمد ببطء. ازدادت ألسنة اللهب، وأمكن سماع ضحكات عالية وأصوات أطفال. وشحب لون جوليتا واتكأت على قرن بقرة وهي لا تتحرك وخرسها الرعب؛ وسمعت وقع أقدام خلف رأسها، وشعرت بخدودها تلفحها أنفاس ملتهبة وجاء رجل ووقف أمامها. وكان ثيابه غنية وملابسه من الحرير الأسود، ويده القفازة تلمع بالألماس؛ وكان يسمع عند أدنى حركة من حركاته صوت أجراس فضية كأنها ممزوجة بنقود ذهبية، وكان وجهه قبيحاً، وشاربه أحمر، وخداه مجوفان، ولكن عينيه كانتا تلمعان كجمرتين، وكانتا تلمعان تحت حدقة كثيفة كحفنة من الشعر؛ وكانت جبهته شاحبة متجعدة عظمية، وكان الجزء الأعلى منها مخفياً بعناية بقبعة مخملية حمراء. كان كما لو كان خائفاً من إظهار رأسه.

- وقال لجوليتا: "طفلة، طفلة جميلة!" وجذبها نحوه بيد قوية، مع ابتسامة حاول أن يجعلها رقيقة ولكنها لم تكن إلا رهيبة.

- هل تحبين شخصاً ما؟

- قالت الفتاة: (أوه، دعني وشأني) قال الفارس: (إنني أموت بين ذراعيك، إنك تسحقيني!

- " وتابع الفارس: "لا أحد؟ أوه، ستحبين أحداً، لأني قوي، أستطيع أن أعطي الكراهية والحب. هَا هُنَا، لِنَجْلِسْ هُنَا"، وتابع: "على ظهر بقرتك البيضاء. فاستلقت على جنبها وأعطت خاصرتها، وجلس الغريب على عنقها ممسكاً بأحد قرنيها بيد وخصر جوليبيتا باليد الأخرى. كان الغمام قد توقف، ولم تعد الشمس مشرقة، وكان الظلام قد أظلم تقريباً، وكان القمر شاحباً خافتاً يصارع النهار. نظرت جوليبيتا إلى الغريب برعب، وكانت نظراتها رهيبة.

- "دعني أذهب!" قالت: "دعني أذهب، باسم الله!

- الله؟" قالها بمرارة وضحك. وتابعت جوليبيتا: "هل تعرف الدوق آرثر المرويز؟

- لقد رأيته في بعض الأحيان، ولكنني أخشى أن يكون مثلك... أوه، دعني وشأني، دعني وشأني، يجب أن أذهب... أبي! أوه، لو كان يعرف...

- والدك! حسناً؟

- لو علم، أقول لك، أنك تبقيني هنا في الليل... أوه، سيقتلك!

- سأتركك تذهبين يا جولييتا، اذهبي! وأسقط الذراع التي كانت تمسكها بإحكام. ولم تستطع أن تنهض لأن شيئاً ما كان يربطها ببطن الحيوان الذي كان يئن بحزن ويبلل العشب بلسانه اللعابي؛ وكان يئن ويهز رأسه على الأرض وكأنه يموت من الألم.

- حسناً، جولييتا، اذهبي؛ من يمنعك؟ وحاولت مرة أخرى، ولكن لم يستطع شيء أن يجعلها تتحرك؛ فقد انكسرت إرادتها الحديدية أمام سحر هذا الرجل وقوته السحرية.

- وسألته: فسألته: (ما الذي أضر بك؟) - أنت لم تفعل أي أذى. ولكن لنتحدث عن الدوق آرثر دالمارويز. أليس غنياً ووسيماً؟

ثم مكثا معاً هكذا طويلاً، والفتاة الصغيرة ترتجف، وهو بعينيه مثبتة عليها يحدق فيها بنهم.

- هل أنتِ سعيدة؟

- هل أنتِ سعيدة؟ أوه، لا!

- ماذا تريدين؟

- لا أدري، ولكني لا أحب شيئاً، ولا شيء يسعدني، وخاصة اليوم، فأنا حزينة جداً، وهذا المساء مرة أخرى... نظرتك اللئيمة. !سأجن

- ألا تحبين أن تكوني ملكة يا جولييتا؟

- لا!

- ألا تحبين يا جولييتا الكنيسة ببخورها وصحنها العالي وجدرانها السوداء وأغانيها الغامضة؟

- لا، لا أحبها

- هل تحبين البحر، والأصداف على الشاطئ، والقمر في السماء، والأحلام في لياليك؟

- نعم، أحب كل ذلك.

- وما الذي تحلمين به في لياليك يا جولييتا؟

- وما أدري ما الذي أعرفه؟ وأضحت تفكر

- ألا تتمنين حياة أخرى، وأسفاراً بعيدة، ألا تتمنين أن تكوني ورقة الورد التي تتدحرج في الهواء، والطائر الذي يطير، والأغنية التي تضيع، والصرخة التي تحلق؟ أليس الدوق آرثر وسيمًا وغنيًا وقويًا! وهو، أيضاً، يحب الأحلام والنشوة السامية. ثم تابع بهدوء: "دعيه يأتي، دعيه يأتي، دعيه يأتي، ستحبه وبحب حار ملتهب سيخسران نفسيهما معاً.

وكان القمر يتدحرج من تحت السحاب، ويضيء الجبل والوادي والقلعة القوطية القديمة التي ظهر ظلها المظلم في ضوء القمر كشبح على جدار المقبرة.

- قَالَ الْغَرِيبُ: هَلُمَّ نَنْهَضُ وَنَسِيرُ! فأخذ الغريب جولييتا وقادها، وكانت الأبقار تقفز وتعدو عبر الحقول، وتركض الواحدة تلو الأخرى في جنون، ثم تعود حول جولييتا تقفز وترقص؛ ولم يكن يسمع من البقرات إلا صوت وقع أقدامها على الأرض وصوت الفارس ذي المهماز الذهبي الذي كان يتكلم ويتحدث بصوت مفرد كأنه عضو من الأعضاء. وكانا يسيران على هذا النحو منذ وقت طويل، وكان الطريق سهلاً وسارا بسرعة فوق العشب الطازج الذي كان زلقاً تحت أقدامهما كالجليد المصقول. كانت جولييتا متعبة، وكانت ساقاها تتدلى تحت جسدها.

- كانت تسأل كثيراً متى سأصل إلى هناك؟ وكانت نظراتها الكئيبة ترنو إلى الأفق، الذي لم يكن يقدم لها سوى ظلام دامس. وأخيراً، وبعد وقت طويل، تعرفت على منزل والدها. وكان الغريب لا يزال إلى جانبها لا ينطق بشيء، ولم يكن في وجهه إلا البشاشة والابتسامة التي كانت تعلو وجهه؛ وانفلتت

من شفتيه بضع كلمات بلغة غير معروفة، ثم أنصت باهتمام، صامتاً وفمه فاغر فاه.

- وسأل مرة أخرى: هل تحب الدوق آرثر؟

- إنني بالكاد أعرفه، وماذا يهمك أنت؟

- حسناً، ها هو ذا! لقد كان عارياً حتى الخصر، وكان جسمه أبيض كالثلج، وكان شعره أزرق اللون وعيناه لهما بريق سماوي. اختفى الغريب على الفور. ركضت جوليتا، وعندما وصلت إلى باب خشبي محاط بسياج، تمسكت بالمطرقة الحديدية وقرعت الجرس. جاء رجل عجوز ليفتح الباب؛ كان والدها.

- فقال لها: "أيتها الطفلة المسكينة، من أين أتيتِ، تفضلي بالدخول!". فأسرعت الفتاة الصغيرة في الحال إلى داخل البيت، حيث كانت أسرتها تنتظرها بفارغ الصبر منذ عدة ساعات؛ وصاح الجميع في الحال فرحاً واحتضنوها وسألوها أسئلة وجلسوا إلى مائدة حول إناء حديدي ضخم يتصاعد منه بخار كثيف.

- فسألتها أمها: "هل أحضرت الأبقار؟

وعندما سمعتها تقول نعم، قالت لها أن تذهب وتحلبها. فخرجت جولييتا وعادت بعد دقائق معدودة ومعها دلو ضخم من الصفيح وضعته بصعوبة على المائدة... ولكنه كان دماً.

- يا للسماء! دماء!" صرخت جولييتا - وقد شحب لونها وسقطت في حضن أمها - "أوه، إنه هو!

- من هو؟

- الشخص الذي أخرني.

- لا أعرف!

- لا أعرف ما هو!

- إنه أنا"، صرخ صوت من خلف الشقة بضحكة ثاقبة. كان الغريب والدوق آرثر ملتصقين بالحائط بالفعل. قفز الرجل العجوز على بندقيته المعلقة في مدفأته وعدّلها.

- الرحمة عليه!" وصرخت جولييتا وهي ترمي بنفسها بعنف حول عنقه. ولكن الرصاصة كانت قد اختفت، ولم يسمع صوت الرصاصة إلا بعد لحظات قليلة، وانكسرت نافذة وتدحرجت رصاصة على حجارة الرصيف. كانت الرصاصة التي كان الشيطان يرسلها.

6

كان الأمر كله غريباً جداً، ولا بد أن يكون وراء ذلك سحر ما أو فخ سحري؛ ثم تحول اللبن إلى دم، وذلك الظهور الغريب، وتأخر جولييتا ونظرتها الخائفة وصوتها المرتعش، وتلك الرصاصة التي كانت ترتد من حولهما، وضحكاتهما الشريرة المنبعثة من الحائط، كل ذلك جعل الأسرة تشحب وترتعد؛ وتجمعوا معاً وسكتوا في الحال. وأسندت جولييتا رأسها إلى يدها اليسرى، وأسندت مرفقها على المنضدة، وفكت الشريط الذي كان يربط شعرها إلى الوراء، وتركته ينسدل على كتفيها، ثم فتحت شفتيها وبدأت تغني بين أسنانها و إن كان ذلك بهدوء شديد; وكانت تغمغم بلحن قديم، حامض ورتيب يخرج منها صفير؛ وكانت تتمايل قليلاً على الكرسي ويبدو أنها تريد أن تغفو على وقع صوتها، وكانت نظراتها غير مهمة ونصف مغمضة، وكان سلوكها لا مبالياً وحالماً.

وكنا نصغي في ذهول ودهشة، وكان دائماً نفس النغمات العالية المنخفضة، ونفس الصوت الأزيز؛ ثم خفت شيئاً فشيئاً، وأصبح ضعيفاً خافتاً حتى مات بين أسنانه. ومضى الليل على هذا المنوال، حزيناً طويلاً، فلم يجرؤ أحد على التحرك من مكانه، ولم يجرؤ أحد على أن ينطق بكلمة أو ينظر وراءه. كان

الرجل العجوز يغط في نوم عميق على كرسيه الخشبي، وسرعان ما أغمضت زوجته عينيها في خوف وضجر؛ أما ولداه فقد طأطآ رأسيهما بين أيديهما وسعيا إلى نوم لم يأت إلا متأخراً جداً، ولكن منزعجاً من أحلام شريرة. كان ينبغي أن ترى تلك الرؤوس الناعسة الكئيبة وقد تجمعوا حول ضوء خافت يلقي على جباههم القلقة وهجاً شاحباً كئيباً: كان رأس الرجل العجوز قبراً، وفمه نصف مفتوح، وجبينه مغطى بشعر أبيض، ويداه الهزيلتان مسندتان إلى فخذيه؛ وكانت العجوز التي وقفت أمامه تدير رأسها من حين إلى آخر من جانب إلى جانب، وقد تجعد وجهها بتعبير فريد من سوء الحظ والمرارة، ثم كانت هناك صورة جولييتا الشاحبة الوادعة بشعرها الأشقر الطويل الذي يتدلى على المائدة وأغنيتها الرتيبة التي كانت تصدر صفيراً من خلال أسنانها البيضاء، ونظراتها الحلوة المسكرة. ولم تكن قد نامت، ولكنها كانت تقضي ساعات الليل في الإصغاء إلى خوار بقرتها البيضاء التي كانت محبوسة في إسطبلها وتعاني هي الأخرى، تلك البقرة المسكينة التي ربما كانت تتلوى من الألم على فراشها المبلل بالعرق. وبالفعل، عندما طلع ضوء النهار وخرجت جولييتا لترعى في الحقول، كانت آثار مخالبها على رقبتها. وخرجت وسارت مسرعة إلى أعلى التل؛ فلما بلغت القمة جلست، ولكن

أسفل ثيابها وقدميها كانتا تقطران، فقد كانت تمشي في الندى، وكانت في ذلك اليوم مجنونة ناعسة؛ ثم ركضت ثم توقفت فجأة ووضعت يدها على جبينها ونظرت حولها لترى إن كان قادماً. لقد أحبت سيداً عظيماً، غنياً وقوياً، فارساً وسيماً ذا عينين متكبرتين وابتسامة متغطرسة؛ أحبت رجلاً غريباً مجهولاً، شيطاناً متجسداً، مخلوقاً كما ظنت، حسن التربية والشاعرية. لا! لا شيء من هذا القبيل، لأنها أحبت الدوق آرثر دالماريز. وفي أوقات أخرى كانت ترجع إلى أحلامها وتبتسم ابتسامة مريرة كأنها تشك في المستقبل، ثم تفكر فيه، وتتخيله هناك جالساً على العشب اللؤلؤي بجانبها؛ وكان هو هناك يقول لها كلمات حلوة ويحدق إليها بنظراته القوية؛ وكان صوته عذباً نقياً يهتز بالحب وكان كل شيء جديداً وموسيقى سامية. ومكثت هكذا وقتاً طويلاً، وعيناها مثبتتان في الأفق الذي بدا لها باهتاً لا معنى له ولا معنى، غبياً كما كان دائماً. وجاء المساء أخيراً، بعد يوم طويل من الكرب، طويل مثل الليل الذي سبقه. ومكثت جولييتا بعد غروب الشمس طويلاً، ثم عادت ومشت ببطء إلى أسفل الجبل، وكانت تتوقف في كل خطوة وتسمع خلفها كل ما تسمعه من صفير الحشرات تحت العشب وتحليق الباشق عائداً إلى عشه. وهكذا مضت في طريقها حزينة بائسة يائسة ورأسها محني على

صدرها متورمة من التنهدات، ممسكة بيدها اليسرى الحبل المبلل الذي كان يحمل بقرتها البيضاء المسكينة التي كانت تعرج على كتفها الأيمن. كان الشيطان قد جلس على هذه البقرة. وعندما وصلت إلى البقعة التي تركها فيها الغريب في اليوم السابق وحيث ظهر لها الدوق آرثر، توقفت بغريزتها وتمسكت بقوة ببقرتها التي كانت بطبيعة الحال تصارعها وتجرها بضع خطوات. ظهر آرثر في الحال، فتركت الحبل، فقفزت البقرة ووثبت مسرعة نحو إسطبلها. ونظرت جولييتا إليه بحب وحسد، بغيرة؛ ومر بها وهو ينظر إليها كما ينظر إلى الغابة والسماء والحقول.

فنادت باسمه، وكان أصم لا يسمع صراخها كما يسمع ثغاء الخروف، أو تغريد الطير، أو نباح الكلب. - آرثر"، قالت له في يأس، "آرثر، أوه! آرثر، اسمع! وجرت وراءه وجرّت نفسها إلى ثيابه وهي تتلعثم وتنتحب؛ وكان قلبها يخفق بعنف، وتبكي من الحب والغضب. لقد كان في هذه الصرخات، وفي هذه الدموع، وفي هذا الصدر الذي كان يثقله الارتطام، وفي هذا الكائن الضعيف الهزيل الذي يجر ركبتيه على الأرض، كل هذا كان بعيداً كل البعد عن صراخ امرأة على خزف مكسور، وثغاء خروف، وتغريد طائر، ونباح كلب، حتى توقف آرثر، ونظر إليها لحظة ثم تابع طريقه.

- أوه، آرثر، أرجوك اسمعني للحظة، لأني أحبك، أحبك! أوه، تعال معي، سنذهب ونعيش معاً على البحر، بعيداً عن هنا، و إلا سنقتل أنفسنا معاً.

كان آرثر لا يزال يمشي.

- أنت لست رجلاً، أليس كذلك، وقلبك بارد كالرخام وقاسي كالحجر! وسقطت على ركبتيها عند قدميه، وتدحرجت على ظهرها كما لو كانت ستموت. لقد كانت تحتضر في الواقع من الإعياء والتعب، وكانت تتلوى من اليأس، وتريد أن تمزق شعرها، ثم أخذت تنتحب بضحكة قسرية، ودموع تخنق صوتها؛ وكانت ركبتيها ممزقتين مغطيتين بالدم من جر نفسها هكذا فوق الحجارة؛ لأنها كانت تحب حباً شيطانياً موجعاً مستغرقاً كله، وكان هذا الحب يفترسها دائماً، وكان حباً غاضباً ثائراً متوثباً متعالياً. لقد كان حقاً حباً مستوحى من الجحيم، بتلك الصرخات المضطربة، وتلك النار الملتهبة التي تمزق الروح، وتضني القلب؛ كان حباً شيطانياً متشنجاً كله غضب وكله قسر، غريباً جداً حتى ليبدو غريباً، قوياً جداً حتى ليقودك إلى الجنون.

- !"أراك غداً، أليس كذلك يا "آرثر عفو! عفو! عفو! وسأعطيك كل شيء بعد ذلك، دمي وحياتي وروحي والخلود لو كان لي! يمكنك أن تقتلني إذا شئت، ولكن أراك غداً! أراك غداً على الجرف... أوه! أليس كذلك؟ في ضوء

القمر... ما أجمل ليلة الحب على الصخور، مع صوت الأمواج، أليس كذلك يا آرثر؟... أراك غداً؟ وألقى بلا مبالاة من شفتيه المحتقرتين كلمتين:

- أراك غداً!

7

أراك غداً! آه! غدا! وهرولت كالمجنونة نحو الجرف، ولم يرها أحد بعد ذلك في القرية، فقد اختفت من البلد. لقد أخذها الشيطان بعيداً.

8

- كان الوقت ليلاً، وكان القمر يسطع أبيض نقيّاً، وكان القمر يضيء مكتب آرثر الذي ترك نافذته مفتوحة؛ وانحنى على الدرابزين الحديدي واستنشق هواء الليل العليل النقيّ ببهجة. وسمع نفس صوت الكفوف الرفيعة الخفيفة على زجاج موقده والتفت حوله. لقد كان الشيطان، ولكنه هذه المرة أكثر بشاعة وأشد شحوباً؛ فقد كان جنباه هزيلين، وفمه الفاغر فاه قد أظهر أسناناً خضراء مثل عشب القبر.

- قال آرثر: (حسناً، أيها الشيطان، حسناً، هل تظن أني تأثرت بهذه الصرخات وهذه الدموع وهذه التشنجات القسرية؟

- حقا"، فأجابه الشيطان وهو يرتجف على أربع: "حقا، حقا، أنت عديم الإحساس!" قال آرثر: "وهل تركتها تموت؟

- " قال آرثر وهو ينظر ببرود إليه، هل ماتت؟

- لا، لكنها تنتظرك.

- تنتظرني؟

- نعم، على الجرف ألم تعدها؟ إنها هناك منذ وقت طويل في انتظارك. - حسناً، سأذهب

- ستذهب؟ حسناً، آرثر، أنا أطلب منك هذا المعروف الأخير فقط، بعد ذلك يمكنك أن تفعل بي ما تشاء، أنا ملك لك.

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- هل تعتقد بأني أهتم كثيرا لروحك؟ ... هل تعتقد بأني أهتم كثيرا لروحك؟ ألم تقل لي يا آرثر، ألم تخبرني أنك تريد أن يكون لك عاطفة، حب قوي ملتهب، غريب عن سائر المحبين؟ حسناً، سيكون لك هذا الحب... أما أنا، في المقابل، ألن تعطيني روحك؟

- أنا لا أملك واحدة

- أنت تظنُّ أنَّك تملك، ولكنَّك تملك، لأنَّك رجل لأنَّك ستحبُّ.

- اعتاد إبليس أن يرى من الكبر والغرور ما لا يرى فيه إلا ذلك؛ فالشقي لا يرى إلا الرذيلة، والجائع لا يشعر إلا بالجوع.

- رجل؟ أيها الشيطان، هل رأيت قط رجلاً استطاع أن يبلغ السحاب في الهواء؟

- وبسط جناحيه الأخضرين

- هل رأيت مثل هذا الشعر؟

- وأظهر شعره الأزرق

- هل رأيت في أحد منهم جسماً أبيض كالثلج، ويداً قوية كتلك اليد يا إبليس؟

- وعصر جلده بشدة بين أظافره

- باختصار، هل تجرأ أحد قط على إهانتك هكذا؟ إذا كنت تريد روحي، فاقتلني الآن، واسحق رأسي بين أسنانك، ومزقني بمخالبك، وحاول أن ترى إن كنت رجلاً. وثب إبليس على الرصيف وهو يرغي من الغيظ، وأوشك في قفزاته المتشنجة أن يضرب ظهره بالسقف؛ وكان آرثر في سلام.

- قال الشيطان: (أنت قوي حقاً، أنت قوي، أنت جبار، أشعر أنك تستطيع أن تهلكني بضربة واحدة، حاول، حاول، حاول، أرجوك، اقتلني! نعم، لديّ روح، أنا أعطيك إياها، روحي؛ اقتلني، الأمر سهل بالنسبة لك، لأنني مجرد إنسان. فوثب الشيطان على حلقه بصرخة جهنمية خرجت من أحشائه؛ وحاول أن يمسكه، ولكن الجلد انزلق تحت أسنانه. وحرر آرثر صدره؛ ووثب الشيطان غاضباً مزبداً، ووثب بمخالبه إلى الأمام، وتراجع إلى الوراء دون أن يتمكن من لمس البشرة التي كانت سليمة مصقولة؛ ووثب غاضباً مضطرباً واعداً، وسرى نباح أجش على شفتيه المدميتين، وبرقت عيناه، وتعثر؛ واستلقى آرثر على الأرض، وفرد جناحيه. وانزلق عليه الشيطان، وجر نفسه فوقه، وزحف، وفتح فمه ليمزقه، وقد تآكلت مخالبه كأنها تمزق صخرة؛ وسال لعابه، وهو يلهث، واحمر من الغضب: لأول مرة وجد نفسه مهزوماً. ثم ضحك الآخر ... ضحك الآخر بهدوء، وكانت تلك الضحكة الهادئة صاخبة رنانة كأنها ممزوجة بصوت الحديد؛ وكان النفس الصاخب الذي زفر من حلقه يدفع الشيطان بعيداً، مثل اهتزاز غاضب لجرس إنذار يقفز في صحن الكنيسة ويهدر ويهز الأعمدة ويهدم القبو. لقد كان من الضروري أن نرى هذين المخلوقين الغريبين جميعاً، الغريبين جميعاً، الاستثنائيين جميعاً، أحدهما

روحي في كل شيء، والآخر جسدي في مادته؛ كان من الضروري أن نرى الصراع بين الروح والجسد، وهذه الروح، هذه الروح الطاهرة الأثيرية، تزحف عاجزة ضعيفة أمام مشرحة المادة الغاشمة الغبية المتغطرسة.

كان هذان الوحشان المتوحشان من الخلق يتواجهان كأنما يتحاربان ويتقاتلان؛ وكانت حرباً مريرة، حرباً حتى الموت، حرباً رهيبة... حرباً ستنتهي بينهما كما تنتهي مع الإنسان... بالشك والضجر. لقد كانا مبدأين غير متماسكين يقاتل أحدهما الآخر وجهاً لوجه؛ وكانت الروح تسقط من الإعياء والضجر أمام صبر الجسد. وكم كانا عظيمين وساميين، هذان الكائنان اللذان كانا سيصنعان معاً إلهاً، روح الشر وقوة القوة! كم كان هذا الصراع رهيباً وقوياً بصرخاته الجهنمية، وضحكاته الغاضبة، ثم اهتزاز المبنى المتهدم كله تحت الأقدام، وتحرك أحجاره كما لو كان في حلم! وأخيراً، عندما قفز الشيطان مرات عديدة وسقط على الأرض وهو يلهث متعباً وعيناه باهتتان وجلده رطب بالعرق الجليدي، ومخالبه مكسورة؛ وعندما تأمله آرثر طويلاً وهو منهك من الغيظ والغضب، يزحف حزيناً على قدميه، وحينما تذوق طويلا حشرجة الموت التي تفلتت من صدره، وحينما أحصى التنهدات المتألمة التي لم يستطع كتمها والتي حطمت قلبه، وأخيراً حينما رفع الشيطان رأسه المتخاذل

نحو قاهره بعد أن استرد عافيته من هزيمته القاسية، وجد تلك النظرة الآلية الباردة الجامدة التي بدت وكأنها تضحك في ازدراء.

- "وأنت أيضاً"، قال آرثر: "لقد سمحت لنفسك أن تنهزم كرجل... وبكبرياء أيضاً! هل تصدق الآن أن ما قلته كان صحيحاً؟

- قد لا تكون رجلاً، قال الشيطان... لكنك تملك روحًا...

- حسناً أيها الشيطان، سأذهب إلى الجرف غداً وفي اليوم التالي، عندما قام الناظر بجولاته في الممرات، وجد أن أحجار الأعلام قد تزعزعت كلها واهتزت من مكان إلى آخر، كما لو كانت بمخلب من حديد. فجن جنون الرجل الصالح.

9

انتظرت جولييتا الدوق، انتظرته ليلاً ونهاراً، تركض على الصخور، انتظرته باكيةً، انتظرته أربع سنوات. لأن السنين تمر سريعاً في القصة، في الفكر، وتمر سريعاً في الذاكرة، ولكنها بطيئة وعرجاء في الأمل. في النهار كانت تمشي على طول الشاطئ، تصغي إلى البحر وتنظر حولها لترى إن كان قادماً؛ ثم عندما تسخن الشمس على الصخور، وعندما تنهكها الشمس

وتسقط من التعب، تنام على الرمال، ثم تنهض مرة أخرى لتذهب وتقطف الفاكهة، لتبحث عن الخبز الذي تتركه النفوس الخيرة في شق في الصخور. وفي الليل كانت تهيم على المنحدرات في ثيابها البيضاء الطويلة، وشعرها مبعثر، وتصرخ من الألم؛ وكانت تجلس ساعات طوالاً على صخرة حادة تحدق في ضوء القمر في الأمواج المتكسرة التي كانت تأتي لتلقي بنفسها على الشاطئ وتخرج رغوة بيضاء بين الصخور والحصى. قالوا: "يا لها من حمقاء مسكينة!" قالوا: "يا لها من شابة جميلة لم تتجاوز العشرين من عمرها ولم يبق لها أمل! إنه ذنبها هي أيضاً، إنها مجنونة بالحب، مجنونة بحب أمير؛ إنه الكبرياء الذي أضاعها، لقد أسلمت نفسها للشيطان. نعم، لقد كانت في غاية الحماقة أن تحب الدوق آرثر، وفي غاية الحماقة ألا تكبت حبها، وفي غاية الحماقة ألا تقتل نفسها في يأسها؛ ولكنها آمنت بالله فلم تقتل نفسها. صحيح أنها كثيراً ما كانت تتأمل البحر والجرف الذي يبلغ ارتفاعه مائة قدم، ثم أخذت تبتسم في رقة مع تجهم الشفتين الذي يخيف الأطفال؛ لقد كانت مجنونة في أن تقف عند فكرة الإيمان بالله، واحترامه، والمعاناة في سبيل مرضاته، والبكاء على مسراته. إن الإيمان بالله يا جولييتا هو أن تكوني

سعيدة؛ أنت تؤمنين بالله وتتألمين! أنتِ مجنونة بالفعل! هذا ما سيقوله لك الناس.

ولكن كلا، بل كان اليأس قد أفضى إلى القنوط، والدموع إلى صرخات غاضبة؛ ولم يعد هناك ومضات صوت، ولا تنهدات عميقة، بل أصوات تنطق بهدوء وتمسك على الشفتين خشية أن يموت وهو يصرخ بها. وكان شعره أبيض، لأن المصيبة تشيخ؛ فهي كالزمن تجري بسرعة، وتثقل ثقيلة وتضرب بقوة؛ بل أكثر من ذلك، فإن دموع اليأس تحتاج إلى دموع أقل في اليأس لتجعل الرجل رقيقاً من قطرات الماء في العاصفة لتحفر حجراً لقبر؛ فالشعر يبيض بين عشية وضحاها. وكان شعرها أبيض، وثيابها ممزقة، ولكن قدميها كانتا قد تصلبتا من المشي على الأرض، ومن حك العليق والشوك؛ وكانت يداها مشقوقتين من البرد وهواء المحيط القاسي الذي يجف ويحرق كصقيع الشمال، ثم كانت شاحبة نحيفة، وعيناها جاحظتان مجوفتان لا يزال يبعث فيهما شعاع من الحب، ويضيء فيهما شرارة من الجحيم؛ وكان فمها نصف مفتوح، وكأنه منقبض بحركة لا إرادية متشنجة من الشفتين. وكانت إذا رأت رجلاً تهرول إليه وتلقي بنفسها عند قدميه وتناديه بآرثر، ثم تعود حزينة يائسة تقول: (ليس هو، ليس هو!) وكان الناس يقولون: (يا للمسكينة المجنونة،

المسكينة صغيرة جداً وجميلة جداً، لا تكاد تبلغ العشرين ولا أمل! لقد كانت ليلة جميلة، مشعة بالنجوم، بيضاء كلها، لازوردية كلها، هادئة كهدوء البحر الذي كان هادئاً رقيقاً يضرب بخفة على صخور الجرف. وكانت جولييتا هناك، لا تزال تحلم وتنفرد، ثم، لا أدري إن كان ذلك حلماً، ولكن آرثر ظهر لها. آرثر! أوه! ولكن لا يزال بارداً، لا يزال هادئاً.

- قالت له جولييتا: لقد كنت في انتظارك، لقد انتظرتك منذ زمن طويل! ارتجف صوتها.

- اجلس معي على هذه الصخرة، يا آرثر، اجلس. إن القمر جميل، والنجوم ساطعة، والبحر هادئ، إنه يوم جميل هنا يا آرثر... اجلس يا آرثر... اجلس ودعنا نتحدث. استلقى آرثر بجانبها.

- قال: (ماذا تريدين مني يا جولييتا، لماذا أنت أكثر حزناً من النساء الأخريات، لماذا طلبت مني أن آتي إلى هنا؟

- لماذا، آرثر، لكني أحبك!

- لكنني أحبك!

- عندما أنظر إليك هكذا، بهذه الابتسامة.

- ووضعت ذراعها حول خصره.

- عندما تشمين أنفاسي، عندما أداعب فمك بشعري، ألا تشعرين بشيء ينبض ويتنفس في صدرك؟

- لا! لا! لا! ولكنك امرأة، ولديك روح، نعم، أفهم ذلك؛ أما أنا فليس لدي روح - ونظر إليها بفخر - وما هي الروح يا جولييتا؟

- ماذا أعرف؟ ... لكني أحبك! أوه، الحب! الحب، يا آرثر، إنه يجعل شعرك، شعري، أبيض. لقد حدقت فيه، وجرّت نفسها على صدره، وأمطرته بالقبلات والمداعبات، وظل هو هادئاً تحت أحضانها، بارداً تحت قبلاتها. كان يجب أن ترى هذه المرأة وهي ترهق نفسها بالحماسة، وتغدق كل ما لديها من العاطفة والحب والشعر، من نار ملتهبة وحميمة، لتنشيط جسد آرثر السبات الذي ظل متبلد الإحساس لهذه الشفاه الملتهبة، ولهذه الأذرع المتشنجة، كمس السحلية عند ملامسة الوحش. كانت جولييتا تتفجر بالحب كما كان الشيطان يتدفق بالغيظ والغضب. لقد كانت تقضي ساعات طويلة على وجنتي آرثر، وهي تنظر إلى السماء اللازوردية ولا شك أنها كانت تفكر في أحلام سامية وأحباء سامية، دون أن تفكر في أنه كان هناك، أمامه، بين ذراعيه، حقيقة سماوية، وحباً استثنائياً، كل ذلك متقداً متوهجاً متعالياً.

جولييتا!" فتركها تسقط منهكة؛ ثم بذلت جهداً أخيراً، ثم ركضت إلى أعلى الصخور ووثبت إلى أعلى؛ وساد الصمت بضع ثوان، وسمع آرثر صوت سقوط جسم ثقيل في الماء. وكان الليل جميلاً، كله هدوء، وكله سكينة، وكله لازوردي كالبحر، وكان لطيفاً هادئاً، وجاءت أمواجه تموت في هدوء على الشاطئ، ثم تدحرجت الأمواج، وتساقطت وجلبت إلى الشاطئ الأصداف والطحالب وحطام السفن. وتدحرجت إحدى الأمواج طويلاً، وامتدت على البعد، ثم تراجعت، ثم عادت، وأودعت شيئاً ثقيلاً وكبيراً. كانت جثة امرأة.

- قال آرثر وهو ينظر إلى الشيطان. ولما رأى هذا الأخير أن جبينه لا يزال شاحباً واضحاً، وأن عينيه جافتين لا تدمعان:

- كلا! كلا! ليس لك روح، لقد كنت مخطئاً

- وتابع وهو ينظر إليه في حسد: (ولكنني سآخذ هذه). وغرز قدمه المعقوفة في حلق الجثة.

10

ومرت عدة قرون. وكانت الأرض تنام نوماً عميقاً، ولم يكن على سطحها أي صوت، وكل ما كان يسمع هو مياه المحيط تتكسر وتزبد؛ وكانت غاضبة ترتفع في الهواء وتضطرب، ويهتز معها الشاطئ كما لو كان في يد عملاق. وهطلت أمطار غزيرة حجبت ضوء القمر المريب، وهبت الرياح تشق الغابة، وانحنت السماء تحت أنفاسها كالقصبة لنسيم البحيرة. وسُمع في الهواء صوت غريب من الدموع والنشيج، كأنه حشرجة الموت في العالم. وارتفع صوت من الأرض يقول: (كفى! كفى! لقد عانيت طويلاً وانحنى ظهري، كفى! يا رحمة! لا تخلقوا عالماً آخر! وهبط صوت عذب نقي رخيم كصوت الملائكة إلى الأرض وقال:

- لا! لا! لا! هذا إلى الأبد، لن يكون هناك عالم آخر!

1837

Georges Feydeau

جورج فيدو

يشتهر جورج فيدو (1862-1921) اليوم بمسرحياته "الفودفيلية القائمة على كوميديا الموقف".

منتصف الصوم الكبير

إنه منتصف الصوم الكبير. هناك حشد هائل في الجادة. في الخارج، الأقنعة الثرثارة تسير منتصرة بين الجموع، والحشود المحتشدة تتبعها وتتدافع فيما بينها، والجموع الغفيرة من الناس يتحدثون دون أن يسمع بعضهم بعضاً، ويتصايحون ويصرخون في وجه بعضهم بعضاً، ويثيرون في الهواء شائعة ثقيلة تغزو هدوء شقتك المغلقة، بينما صوت الأبواق الأجش يناديك كنداء يائس. هيا، طوعًا أو كرهًا، عليك أن تستسلم، وسرعان ما تجد نفسك مختلطًا مع جميع الباريسيين الذين يستمتعون بوقتهم. للحظة تصاب بالذهول! الحشد مزدحم، وبالكاد يمكنك العثور على مكانك. يتجول المقنع البهيج بين الجموع في وقار وفخر، مع اعتداده بنفسه كقائد عظيم يدرك قيمته، وهو يتجول بين الحشود في زي تنكري مصنوع من بعض الحلي الباهتة التي تعطيه ألوانها الزاهية وبريقها الذهبي وهم الثراء. ويتبعه الأطفال وهم يصفقون لنجاحه ويطلقون صيحات الإعجاب التي تدغدغ غروره. ثم يأتي قناع آخر، قناع أفضل منه في المظهر، وفجأة يحل محله قناع آخر. يطير سرب القبرات على المرآة الأكثر لمعانًا، وفي ضربة واحدة يفقد كل المعجبين به.

إنه يشعر بالفضول، ولكنه لا يقول شيئاً، ويواصل سيره في هدوء، وشيئاً فشيئاً، يجمع المعجبين الآخرين على طول الطريق، ولا يستغرق وقتاً طويلاً حتى يكوّن حاشية أخرى لا تقل هشاشة من الحاشية الأولى. ولكن هل يمكنك أن ترى ذلك الثنائي السعيد الذي يمشي متشابك الذراعين؟ الرجل يرتدي قناعًا بشعًا من الورق المقوى على وجهه. من طريقة لباسهما، يمكنك بسهولة التعرف على زوجين من الطبقة العاملة. هو سباك، وهي عاملة غسيل. لا تكسب الأسرة سوى القليل جداً؛ لكنهم شباب يحبون المرح. لذلك أرادوا الاحتفال بصوم منتصف الصيف مثل أي شخص آخر. لا أزياء فخمة ولا مخمل ومذهب. كل ذلك يكلف الكثير، والضحك أرخص بكثير! في الصباح، أخذ كل منا بذراع الآخر وذهبنا بمرح إلى أقرب سوق. سألنا السباك الشاب: "هل لديك قناع مضحك لنا". وبدأنا نبحث في كل تلك الأقنعة الكرتونية، بوجوهها الكالحة أو المتوردة وأنواعها الغريبة وتعابيرها السخيفة، نجربها الواحد تلو الآخر، نتردد ونتناقش ونتفق ولا نقرر، مما أثار انزعاج البائع الذي ابتسم بشفقة. وأخيراً، توقفوا عند شخص حسن المظهر، مضحك الملامح، عيناه مراوغتان، وفمه يضحك ضحكاً يصل إلى

أذنيه، ومفاصل وجهه القبيحة تتلوى في الهواء بشكل مضحك. وسأل الموظف: "وماذا عن السيدة؟

- أوه، لن أتناول أي شيء!

- لن أتناول أي شيء! وتركت الغسّالة الصغيرة عينيها الكبيرتين الناعمتين المليئتين بالحنان على زوجها. ثم غادرنا. وكان السباك قد ربط قناعه بإحكام خلف عنقه، وغطى رأسه بقلنسوة قطنية عملاقة، وقد علق فتيلها في الهواء كبرج الجرس، وهكذا تزين بها، وزوجته على ذراعه، وشق طريقه مرحاً في الجادة. وها أنت ذا تراه الآن وهو يسرع بين الجموع؛ ويتبعه الأولاد ويتلفت المتفرجون حوله. لقد أصبح الرجل الخجول جريئاً، وها هو ذا ينادي على المقنعين الآخرين، ويقف، ويمزح، والناس يتجمعون حوله! ثم يستمر في طريقه المتقلب، ويستدير مرة، ويلتفت مرة أخرى، ويلقي بعض اللمزات المبتهجة، وينطلق مرة أخرى وأنفه يتلوى وهو لا يزال يحمل وراءه زوجته الصغيرة وكلها فخر برجلها. والجمهور، وهو يجدد نفسه باستمرار، يسحب بطليّنا اللذين اختفيا عن الأنظار. ولكن فجأة انطلقت صرخة، صرخة صارخة، صرخة حادة مروعة يائسة تدوي من وسط الحشد. اندفع الحشد الفضولي إلى الأمام، وتشكّل تجمع كبير. وفي الوسط، تهيمن على الحشد حافلة

عامة متوقفة. جاء الناس يركضون ويصرخون ويدفعون بعضهم البعض. ما الذي يجري؟ خرقاء مثل الباريسيين، أتسلل بأقصى ما أستطيع إلى وسط الحشد! أسأل من حولي. قيل لي إن شابة دهستها السيارة الضخمة للتو. استولى عليَّ الرعب، ولكنني أنصعت لذلك الفضول الغريزي الذي يجذبك إلى الأشياء التي لا تريد أن تراها، نظرت. الرعب! هذه المرأة الراقدة فاقدة الوعي، ولحمها ملطخ بالدماء. ورجل يتألم ورأسه مضغوط على صدر المرأة الصغيرة، وهو يطلق صرخات تدمي القلب. وفجأة يرفع رأسه: "يا زوجتي! زوجتي!" يصرخ مذهولاً! ورأت الجموع، وقد أصابها الفزع، منظرًا أكثر شناعة: وجهًا بشعًا بعينين جاحظتين، وفمًا يضحك في عبث حتى أذنيه، ووجهًا مفصلاً يتلوى في الهواء بسخرية.

Léon Bloy

(1846-1917)

ليون بلوي

الفاصوليا

شاب وسيم وفتاة جميلة يتزوجان بحماس. بعد انتهاء المراسم، ينفردان ببعضهما البعض أخيرًا! يجلسان متقابلين على كراسي مريحة، ويحدق كل منهما في الآخر لفترة طويلة دون أن ينطقا بكلمة، ويموتان من الرعب. (موجز تاريخ معاصر)

كان السيد ترتوليان قد بلغ الخمسين من عمره، وكان شعره لا يزال لونه أسود جميلاً، وكانت تجارته تسير على نحو مثير للإعجاب، وكانت سمعته تزداد يوماً بعد يوم، عندما أصابه سوء حظه بفقد زوجته. كانت ضربة فظيعة. كان الأمر يحتاج إلى انحراف لتخيل رفيقة أكثر إرضاءً. فقد كانت أصغر من زوجها بعشرين سنة، وكانت ذات وجه مقزز لا يمكن تخيله، وكانت ذات شخصية مبهجة، ولم تكن تفوت فرصة لإسعاد زوجها. وكان ترتليان الشهم قد تزوجها مفلساً، كما يفعل معظم التجار الذين لا تلائمهم العزوبة ولا وقت لديهم لتكريسها لإغواء العذارى الصعبات. كان قد تزوجها "بين جبنين"، كما قالها مازحًا. لأنه كان تاجر جبن بالجملة، وقد قام بهذا العمل الخطير في

الفترة الفاصلة بين تسليم جبن تشستر الذي لا يُنسى ووصول جبن البارميزان الاستثنائي. ويؤسفني أن أقول إن هذا الاتحاد لم يكن مثمراً، وكان ذلك ظلاً على الصورة الرشيقة. خطأ من كان السبب؟ سؤال خطير كان يدور دائماً على ألسنة مزارعي الفاكهة والبقالين في جرو-كايو. جزار هيسبيد الذي احتقره ترتليان الوسيم اتهمه علانية بالعجز، في تحدٍ لاعتراضات الجزار المحبوب الذي ادعى أنه موثق جيدًا.

- غير أن الصيدلاني أعلن أنه كان من الضروري التريث في تكوين الرأي، ووافق الجمهور الطيب من المهتمين وغير المهتمين بالنزاع على حذر هذا المفكر. وقالوا بسلطة كبيرة أن باريس لم تبن في يوم واحد، وأن كل شيء ينتهي على خير ما يرام، وأن من يريد أن يسافر بعيداً يدخر راحلته ... إلخ، إلى آخر ما هنالك من الأمور التي توجب افتراض الحدث المواتي الذي سيضع، يوماً أو آخر، اللمسات الأخيرة لازدهار صانع الجبن الباهر. قد تظن أنه كان دوفين فرنسا.

***

كان هناك تأثر كبير عندما علمنا بالموت المفاجئ الذي قضى على هذه الآمال المشروعة. ما لم يتزوج ترتوليان بسرعة، وهي فرضية لم يكن حزنه ليسمح له بقبولها ولو لدقيقة واحدة، مستقبل مؤسسته، وهذا ابن أعماله الخاصة، هذا الابن الذي كان ثرياً جداً رغم أنه بدأ من لا شيء، سيرى زبائنه ينتقلون إلى خليفة أجنبي في النهاية!

لقد كان احتمالًا مظلمًا كان من شأنه أن يبعث على ندم الزوج الحزين. والواقع أنه بدا على وشك السقوط في هاوية اليأس. ولست أدري إلى أي مدى كان حلم النسل من الجبن يعمل في نفسه، ولكني كنت الإصبع الصغيرة التي شهدت نحيبه المؤلم واستدعاءاته التي كان يصدرها لنفسه خارج نطاق القضاء ليلحق بكليمنتين إلى القبر في المستقبل القريب جداً، وهو بالمناسبة لم يحدده. وبعد أن تسنى لي الوقت لدراسة متعمقة لهذا الرجل المتعاطف الذي أقمت معه أوثق العلاقات التجارية لمدة عشر سنوات، استطعت أن ألاحظ سمة رائعة في شخصيته و إن لم تكن معروفة. كان لديه خوف فظيع من أن يكون ديوثاً. فقد كان جميع أسلافه ديوثاً منذ مائتين أو ثلاثمائة وعشرين سنة، وكان حنانه على زوجته يرجع قبل كل شيء إلى يقين لا يتزعزع من أنه مطمئن منها اطمئناناً استثنائياً إلى جبهته كلها.

حتى أنه كان هناك شيء هزلي ومؤثر للغاية في امتنانه. وعند التأمل، انتهى الأمر إلى أن كل ذلك كان مأساويًا إلى حد ما، وكنت أتساءل أحيانًا بدهشة عما إذا كان عقم كليمنتين الفاضح يمكن أن يفسر بأي شيء آخر غير بعض الشكوك الغريبة جدًا التي ربما كانت تراود ترتليان حول هويته وخوفه السامي من أن يخدع نفسه - بتلقيحها.

***

ولكن كل هذا كان جميلاً جداً، وبعيداً جداً عن مارول أو بوندون أو ليفارو، وحدث الشيء المبتذل الذي كان لا بد أن يحدث. بعد أن أعادت كليمانتين روحها إلى الرب، زفر الأرمل التعيس في البداية، باندفاع زفرة وأنيناً كما توصي الطبيعة. ولما انتهى من هذا التكريم الأول - إن صح التعبير الذي كان مولعاً به - أراد أن يرتب بنفسه ذخائر محبوبته قبل مراسم الجنازة التي كان من المؤكد أن صخبها وضجيجها سيجعله متوتراً. كان هذا هو المكان الذي ينتظره فيه قدر زوجة أبيه. واكتشف في درج غامض من أدراجه قطعة أثاث حميمة لم يكن ليجرؤ أكثر الأزواج غموضاً على الشك في أمرها، مراسلات ضخمة ومتنوعة لم يستطع أن يمسكها لحظة واحدة. كان جميع

أصدقائه ومعارفه قد اطلعوا عليها. وباستثنائي وحدي، فقد كانوا جميعاً محبوبين من زوجته. حتى موظفيه - وقد وجد رسائل منهم على ورق وردي اللون - قد أثلج صدره في الوقت نفسه. وأصبح على يقين من أن الفقيد كان يخدعه ليلاً ونهاراً، في كل مكان تقريباً، مهما كان الطقس. في سريره، في قبوه، في عليته، في متجره، حتى تحت أنواع الجبن وروائحه. وغني عن القول، أن هذه المراسلات القذرة لم تنقذه كثيرًا. فقد تعرض للسخرية بلا هوادة من أول سطر إلى آخر سطر. وكان كاتب التلغراف، المشهور بخفة دمه، يمازحه بأقصى ما يمكن من الاستخفاف بأعماله، إلى حد الانغماس في تلميحات أو نصائح يستحيل نشرها. ولكن كان هناك شيء لم يُسمع به من قبل، كان هناك شيء باهظ ورائع وخرافي حول إزعاج كوكبة الجدي.

وأضيفت إلى هذا الملف المهين سلسلة لا نهاية لها من العصي الصغيرة التي أدهشته وبدا له وجودها في البداية غير قابل للتفسير. ولكن، وباستحضار فطنة الأباشي الحاذق العازم على درب حرب، غمره صفاء حيوي عندما أدرك أن عدد هذه الأشياء من العيدان المشجعة هو عدد عشاقها وعبادها، وأن كل واحدة منها كانت مشقوقة بمطواة ذات عدد كبير من الشقوق تشبه تلك التي صنعت على جذوع الخبازين. ومن الواضح أن

كليمونتين هذه كانت امرأة من أرفع طراز، وامرأة كانت تحرص على أن تكون على قدر المسؤولية. أما الزوج الذي سحقه الذل فقد أعرب عن رغبة طبيعية جداً في أن ينفرد بالمرأة الميتة ويغلق على نفسه ساعتين أو ثلاثاً كرجل يريد أن يسلم نفسه إلى مصابه دون رادع.

***

وبعد بضعة أسابيع، أقام ترتليان عشاءً فخمًا بمناسبة عيد الملوك الثلاثة. واحتشد عشرون ضيفاً من الرجال الذين تم اختيارهم بعناية حول المائدة. كانت الروعة منقطعة النظير معروضة. طعام رائع، وفير وغير متوقع. كانت تشبه وليمة وداع أمير مترف على وشك التنازل عن العرش. غير أن العديد من الناس شعروا بلحظة انزعاج عند رؤية الديكور الجنائزي الذي استعاره بلا شك خيال صانع الجبن الكئيب الآن من بعض الذكريات الميلودرامية. كانت الجدران وحتى السقف مغطاة باللون الأسود، وكان مفرش المائدة أسود، وكانت الغرفة مضاءة بشمعدانات سوداء مع شموع سوداء. كان كل شيء أسود. أراد عامل التلغراف الذي كان مفككًا تمامًا أن يغادر. منعه مزارع خنازير مرح من المغادرة، معلنًا أنه كان عليه أن "يرقى إلى مستوى الحدث"

وأنه وجده "ممتعًا للغاية". وقرر الآخرون، الذين لم يحسموا أمرهم للحظة، أن يسخروا من الموت. وسرعان ما أصبحت الوجبة مضحكة للغاية مع استمرار تدفق الزجاجات. مع الشمبانيا، كان انتصار التلاعب بالألفاظ قد تأكد، وكانت الأشياء القذرة قد بدأت في الظهور، عندما تم إحضار كعكة ضخمة.

- قال ترتليان الذي نهض واقفاً على قدميه: (أيها السادة أيها السادة: نحن سنفرغ كؤوسنا إن شئتم، في ذكرى امرأتنا العزيزة المتوفاة. لقد تمكن كل واحد منكم من معرفة وتقدير قلبها. لا يمكنكم أن تكونوا قد نسيتم، أليس كذلك؟ قلبها العطوف والحنون. لذلك أطلب منكم أن تتذكروها بطريقة خاصة جداً، قبل أن تقطعوا كعكة الملك التي كانت تحب أن تشارككم إياها كثيراً. وبما أنني لم أكن يوماً حبيب صانعة الجبن، ربما لأنني لم أقابلها قط، فلم أكن مدعواً إلى هذا العشاء ولم أستطع أن أعرف لمن كانت الفاصوليا الملكية. ولكني أعلم أن تيرتوليان الشيطاني قد اقتيد إلى المحكمة لأنه أدخل قلب زوجته، قلب كليمنتين اللذيذ المتعفن، في الجوانب الهائلة من كعكة الفرنجبين هذه.

Joséphine Colomb

(1833 – 1892)

جوزفين كولومب

أغلقت بسبب الموت

في ذلك الصباح، كنت أعبر ساحة السوق المزينة بأكشاك أرض المعارض. وكنت قد رأيتها في اليوم السابق مضاءة بالمصابيح والفوانيس والشموع الخاصة بالمسارح البهلوانية ومحلات الألعاب واليانصيب في الهواء الطلق وأكشاك خبز الزنجبيل؛ وكنت قد استمعت إلى خطب المشعوذين ورجال الاستعراض، و إلى حفلات الطبول والمزمار، وأعجبت، مثل سائر المتفرجين، بالأزياء المخملية والذهبية الرائعة التي كانت ترتديها فرق الممثلين المختلفة. ولكن في الصباح، يا له من اختلاف! فقد فتحت الحوانيت أبوابها ببطء؛ وكانت الخيول الخشبية بالكاد تتبين أشكالها تحت الخيمة القماشية الرمادية الكبيرة التي كانت تغطيها، وسكتت كل الموسيقى، وكان بالإمكان أن تشم رائحة حساء البصل والطعام المقلي هنا وهناك من موقد كان يطبخ فيه مخرج تماثيل الشمع أو مسرح ريكويكي العظيم. كانت رئيسة الوزراء الشابة تجلس على درجات كوخها وهي ترتدي ثوباً أسود وقميصاً قصيراً من الفانيلا وتصلح تذهيب زي الأميرة، وغير بعيد عنها كان هرقل المحروم من ناديه يشرب قهوته بالحليب في استرخاء. وظل أحد الأكواخ مغلقاً وصامتاً

بعناد. غير أن سكانه لم يغادروه؛ فقد كانوا لا يزالون يلعبون في اليوم السابق، ولاحظت أن الجمهور كان يضحك من سذاجة رجل القش، وهو صبي طويل القامة بوجه سخيف كان يتجول مع امرأة حمراء سمينة هي سيدة المكان. وبينما كنت أتساءل عما حل بهما، انشق القماش وظهرت المرأة السمينة وهي تحمل في يدها لافتة كبيرة مكتوبة بحروف سوداء. التفتت إلى عامل الحصيرة الذي كان يتبعها وناولته اللافتة: "خذ، ألصق هذه في المقدمة وضعها حيث يمكن قراءتها. وحاول أن تضع حداً لخرابك بأسرع ما يمكن، فالبكاء يسيء إلى مهنتك. اذهب واهتم بالشكليات بدلاً من ذلك، وسيري الأمور بسلاسة حتى لا يفوتنا عرض الغد مرة أخرى. عادت بجلال إلى كوخها. كان فراش القش المسكين ينتحب. اقتربت منه وقرأت على اللافتة التي كان يحملها وهو يرتجف هذه الكلمات المكتوبة بشكل سيئ جداً بحروف كبيرة جداً: **Fairmé pour coze de dessais**. بقيت متأملاً. فكرت في نفسي هل يموت الناس ويبكون هناك، أناس وظيفتهم إضحاك الناس؟ نظرت إلى فراش القش، فبدا لي وجهه السخيف الذي يكسوه الألم مؤثراً في نفسي. كان لا يزال يبكي. وفي النهاية، ولا شك أنه تذكر التوصية التي تلقاها، فابتعد بضع خطوات، ثم توقف كمن لا يعرف إلى أين يذهب،

ونظر حوله. لم يكن هناك أحد غيري، فخلع قبعته واقترب مني بخجل وقال: "سيدي، هلا أخبرتني أين تقع دار البلدية ثم الكنيسة ثم المقبرة؟ عند هذا بدأ بالبكاء بصوت عالٍ. فأجبته: "أنا ذاهب نحو دار البلدية، وما عليك إلا أن تتبعني". أثار الرجل المسكين اهتمامي. قال: "شكراً لك يا سيدي"، وبدأ يسير بجانبي. سألته بعد لحظة: "لقد فقدت شخصاً ما الليلة الماضية". هل كان حادثاً؟ يبدو لي أنك لعبت الليلة الماضية.

- عليك أن تلعب جيداً لتكسب قوت يومك، والرئيس لا يحب أن نرتاح. وكانت تلعب دورها حتى الساعة الحادية عشرة، ثم تذهب لتجد الطفلة الصغيرة. وكانت المسكينة قد أعطيتها شيئاً لتشربه كلما استطعت، وكانت تقول لي: (شكراً لك يا أرسين) بصوتها الصغير العزيز. كانت مصابة بالحمى! كان الأمر مثيراً للشفقة. وبعد منتصف الليل توقفت عن الكلام، ولم تكن قد خارت قواها، ولكنها كانت لا تزال تنظر إليك لتشكرك. وبعد ذلك، عندما جاء ضوء النهار، أغمضت عينيها وتحولت إلى اللون الأبيض، وبعد لحظة رأينا أنها ماتت. عزيزتي الصغيرة المسكينة!

- والمرأة السمينة التي أحضرت اللافتة، هل هذه أمها؟

- نعم، هذه أمها. إنها ليست امرأة سيئة، صاحبة المنزل؛ ولكنها ليست رقيقة القلب، ثم ماذا تتوقع؟ إن لديها أطفالاً آخرين لتطعمهم، وليس لديها وقت للبكاء. إنها تريد أن تقدم عرضاً في الغد، وعلينا أن ندفن الطفلة الصغيرة مبكراً حتى نتفرغ بعد ذلك. لديها الشجاعة، ستعزف بشكل جيد جداً، الرئيسة؛ ولكنني لن أتمكن من ذلك! منذ أن مرضت الطفلة الصغيرة، لم أفعل شيئاً منذ أن مرضت، كل ما فعلته هو أنني كنت أؤذيها كثيراً، ولم أستطع أن أفكر في أي شيء أقوله: والآن سيصبح الأمر أسوأ من ذلك! كنت أنا من يعتني بها، وأنا من علمتها المهنة، وكنت دائمًا موجودًا لمنعها من إيذاء نفسها. ولم أستطع منعها من الإصابة بالزكام ذات يوم عندما كانت ترقص! ومنذ ذلك الحين وهي تسعل وتصاب بالسعال والهزال. وصلنا إلى دار البلدية ودخلت معه. كان أرسين المسكين في حاجة إليّ: لم يكن يعرف ما يجب عليه أن يفعله، وكان عليّ أن أكون شاهدا. عندما سألته عما إذا كان يريد قطعة أرض، بدا متفاجئًا جدًا. كان عليّ أن أشرح له أنه لكي يبقى القبر سليماً في المقبرة، كان من الضروري شراء قطعة الأرض. وسألني عن الآخرين؟

- حسناً، الآخرون... بعد خمس سنوات يتم نقل الأرض...". فأطلق تعجُّباً من اليأس. قال: "وكم يجب أن تدفعوا من المال، "كم يجب أن تدفعوا لكي لا تضعوا أيديكم عليها؟

- إن ثمنه لعشر سنوات مائة فرنك، أما إلى الأبد فهو أغلى من ذلك.

- مائة فرنك! كان الرجل المسكين محطماً. وأخيراً نظر إلى الموظف الذي كان ينتظر، وقلمه في الهواء: (لا، لا تنازل، ليس اليوم.. . لا أستطيع.. . ولكن بعد خمس سنوات، إذا كان معي مائة فرنك، فلن نلمس الصغير، أليس كذلك؟

- لا، بلا شك، ستظل قادرًا على شراء الأرض.

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الكنيسة، حيث طلب قداسًا. وكان القداس البسيط لا يزال باهظ الثمن، وقد تأثرت بحزن ذلك المسكين حتى أنني دسست في يده ما يكفي لدفع ثمن ملاءة بيضاء و إكليل من الزهور لفتاته العزيزة الميتة. فقال لي وهو ينصرف: (آه يا سيدي) (إذا أردت أن يقتلك أحد من أجلك فقل ذلك). وفي اليوم التالي، عندما استدار بعد أن سكب الماء المقدس على التابوت الصغير الذي كان قد أنزل للتو في القبر، رآني خلفه. هذه المرة لم يقل لي شيئاً، لكنه أخذ بيدي وعصرهما حتى انكسرتا. وبعد ساعة رأيته يدخل

بيتي. فقال لي: "لقد تبعتك يا سيدي لأعرف أين تقيم. فأردت أن أشكرك، ثم... إذا كنت لا تزال تفعل شيئاً من أجلي... أنا لا أريد أن أتصرف بعد الآن، ولا أريد أن أغادر هذه البلدة؛ إذا أمكنك أن تساعدني في العثور على وظيفة كخادم...

- كخادم، يا ولدي المسكين لكن ماذا يمكنك أن تفعل؟

- لا شيء يا سيدي، هذا صحيح؛ ولكني قوي جداً، وسأتعلم ما يُطلب مني؛ فليس من الصعب أن أطيع، فقد تعودت على ذلك مع صاحبة البيت. لقد اعتادت أن تقسو عليك، وكنت سأتركها منذ زمن طويل لولا الطفلة الصغيرة التي كانت تزعجك... أعدك بأني سأكون فتى صادقاً، لن أشرب الخمر أبداً، وسأفعل كل ما يطلب مني بعد خمس سنوات سأكون قادراً على جمع مائة فرنك، أليس كذلك؟" مسكين "آرسين"! وخطرت لي فكرة، ودون أن أفكر في أنني لا أعرف ماذا فعل ولا من أين أتى سألته: (هل تود أن تأتي إلى منزلي؟) فسقط على كرسي وخرّ صامتاً من الصدمة والفرح، ثم عندما استطاع أن يتكلم مرة أخرى قال: ما أروع أن أتحدث عن الفتاة الصغيرة!

منذ عشرين عاماً: لم يتركني أرسين أبداً، ولم ير المرء قط، ولا حتى في الأيام الخوالي، العصر الكلاسيكي للخدم المخلصين، خادماً أفضل منه. لقد

اشترى بأول مال أعطيته إياه يوم أخذته في خدمتي صليباً خشبياً أسود؛ ومنذ ذلك الحين كان ينفق أجره دائماً في المقبرة، والآن يقف فوق القبر الذي تنام فيه الطفلة المسلية قبر حجري محاط بحديقة جميلة. وكان أرسين يزرعها بنفسه: فقد أصبح بستانيًا حبًا في ذكرى حبيبته، ولا تظهر زهرة جديدة لا يشتريها ويحملها هناك.

Alphonse Daudet

(1840 – 1897)

ألفونس دوداي

الفصل الأخير[7]

في ذلك الصّباح، كنت متأخّراً جداً عن المدرسة، وكنت خائفاً جدّاً من أن يتمّ توبيخي، خاصة وأن الأستاذ "هامال" كان قد أخبرنا أنه سيختبرنا في اللغة وما تبعها ولم أكن أعرف شيئا. للحظة فكّرت في التغيّب عن الحصّة والرّكض عبر الحقول.

كان الطقس دافئاً وصافياً جداً !

كان بإمكانك سماع صفير الشحارير على أطراف الغابة، وفي المرج خلف المنشرة، كان "البروسيون"[8] يتدرّبون. كلّ هذا كان يغريني أكثر بكثير من كلّ القواعد؛ ولكنني كنت أملك القوّة على المقاومة، وركضت بسرعة كبيرة نحو المدرسة وكأن قوة خفية تدفعني إلى هناك.

وعندما مررت بمبنى البلدية، رأيت الناس واقفين عند السّور الصّغير الذي يحمل الملصقات. لقد كانت كل الأخبار السّيئة تأتي من هناك منذ سنتين، من المعارك الخاسرة، والمطالبات، وأوامر القيادة، وفكرت دون أن أتوقّف : " ما الأمر الآن؟ "

---

7. Alphonse Daudet, contes du lundi.

8. Les Prussiens.

ثم، بينما كنت أركض عبر السّاحة، صاح بي الحدّاد "فاختر" الذي كان هناك مع صانعه، الفتى الذي يتدرب عنده ويتعلم المهنة، يقرأ الملصق الحائطي :

" لا تستعجل كثيراً يا فتى، ستصل إلى المدرسة باكرا جداً !"

ظننت أنه كان يسخر مني، ودخلت إلى فناء الأستاذ "هامال " وأنا ألهث.

عادة، في بداية الفصل، كان هناك ضجيج كبير يمكن سماعه حتى في الشارع: مكاتب تفتح وتغلق، ودروس تُعاد بصوت عالٍ، والجميع يغطّون آذانهم معًا ليتمكنوا من التعلم بشكل أفضل، ومسطرة المعلم الكبيرة تضرب على الطاولات :

"قليل من الصمت !"

كنت أعتمد على هذا الضجيج كله لأصل إلى مقعدي دون أن يراني أحد، ولكن في ذلك اليوم بالذات كان كل شيء هادئاً، كصباح يوم الأحد. كنت أرى من خلال النافذة المفتوحة زملائي في الفصل في أماكنهم بالفعل، والأستاذ "هامال"[9] الذي كان يمر مراراً وتكراراً حاملاً المسطرة الحديدية الرهيبة تحت ذراعه. كان عليَّ أن أفتح الباب وأدخل وسط هذا الهدوء العظيم. قد تظن أنني كنت محمرّ الوجه وخائفاً !

[9] Mr Hamel.

أبداً، لم أكن كذلك! نظر إليّ السيد "هامال" بدون غضب وقال لي بلطف شديد

" خذ مكانك بسرعة يا صغيري "فرانز"؛ كنا سنبدأ بدونك.

قفزت بهدوء وجلست في مقعدي على الفور. وعندها فقط، وبعد أن تعافيت قليلاً من رعبي وزال ما اعتراني من ارتباك، لاحظت أن معلّمنا كان يرتدي معطفه الأخضر الجميل وجُبّته ذات التثنيات الرفيعة والقلنسوة الحريريّة السّوداء المطرّزة التي كان يرتديها فقط في أيام التفقّد أو أيام توزيع الجوائز. كان هناك شيء غير عادي ورسميّ في الفصل كله. ولكن أكثر ما أدهشني هو أن أرى في آخر القاعة، على المقاعد التي كانت خالية عادة، أناساً من القرية يجلسون في صمت مثلنا: العجوز "هاوزر[10] " والعمدة السّابق، وساعي البريد السّابق، ثم بعض الأشخاص الآخرين. وكان كل هؤلاء الناس تبدو عليهم مسحة حزن، وكان "هاوزر" قد أحضر معه أبجدية قديمة قد تآكلت أطرافها، وقد أمسكها مفتوحة على مصراعيها على حجره، وقد وضع نظارته السميكة على صفحاتها.

---

[10] **Hauser**

وبينما كنت أتعجب من هذا كله، كان السيد "هامال" قد صعد إلى منبره، وبنفس الصوت الرقيق الجاد الذي استقبلني به هذا الصباح قال لنا :

»يا أولادي، هذه هي المرة الأخيرة التي سأدرّسكم فيها. لقد جاءت الأوامر من برلين بتدريس اللغة الألمانية فقط في مدارس "الألزاس واللورين"... سيصل المعلم الجديد غداً. اليوم هو آخر درس لكم في اللغة الفرنسيّة. أرجوكم انتبهوا جيّداً...

هذه الكلمات القليلة صدمتني آه، هذا ما علقه أولئك البؤساء في مبنى البلدية.

درسي الأخير في اللغة الفرنسية !

وأنا بالكاد أستطيع الكتابة! لن أتعلّم أبداً! كان يجب أن أتوقّف عند هذا الحد! والآن ها أنا غاضب من نفسي على كل الوقت الذي أهدرته، والدروس التي ضيعتها في مطاردة العصافير والبحث عن الأعشاش أو اللهو واللعب والعبث! أما كتبي التي كنت أجدها مملة وثقيلة الحمل، كتبي في النحو والتاريخ، فقد بدت لي الآن كأصدقاء قدامى يصعب عليَّ فراقهم. مثل السيد "هامال" نفسه. إن فكرة أنه سيرحل، وأنني لن أراه مرة أخرى، جعلتني أنسى كل تلك العقوبات وعصاه الغليظة المرعبة .!

يا له من رجل مسكين!

وكان قد ارتدى ملابس يوم الأحد الجميلة تكريماً لهذا الحصّة الأخيرة، وبذات افهم الآن لماذا جاء هؤلاء الشيوخ من القرية ليجلسوا في آخر القاعة. بدا لي أنهم ندموا على عدم مجيئهم إلى المدرسة أكثر من مرّة. وكان ذلك أيضاً تعبيراً عن شكرهم لمعلّمنا على السنوات الأربعين التي قضاها في خدمة أبناء هذه البلدة، وعن احترامهم للواجب الذي قدمه للوطن الذي هو على وشك الرحيل...

كنتُ في هذه المرحلة من التأملات عندما سمعتُ اسمي يُنادى عليّ. كان دوري في التلاوة. وما كنت لأضحّي بما لا أملكه لأستطيع أن أقول شيئا عن هذه القواعد اللغوية الضرورية عن النحو والصّرف على طول الخط، بصوت عال وواضح، دون خطأ واحد! ولكنني ارتبكت عند الكلمات القليلة الأولى، ووقفت أتأرجح في مقعدي، وقلبي مثقل لا أجرؤ على رفع رأسي. كنت أسمع السيد "هامال" يتحدث إليّ :

" لن أؤنبك يا صغيري" فرانز"[11]، لا بد أنك عوقبت بما فيه الكفاية... هكذا هو الحال. كل يوم تقول لنفسك: طيّب! لدي الكثير من الوقت. سأتعلم غداً

[11] **Franz**

وبعد ذلك ترى ما يحدث... آه! هذه هي المصيبة الكبرى في "الألزاس"، تأجيل التعلّم إلى الغد. الآن يحق لهؤلاء الناس أن يقولوا لنا: كيف تدّعون أنّكم فرنسيون، وأنتم لا تستطيعون التحدث أو الكتابة بلغتكم! ... في كل هذا يا "فرانز" يا مسكين لستم أنتم المذنبين. يمكننا جميعاً أن نلوم أنفسنا...

لم يهتم والداك بما فيه الكفاية لرؤيتك متعلّمًا. لقد فضّلوا إرسالك للعمل في الأرض أو في مصانع الغزل لكسب بضعة قروش إضافية. أليس لديّ ما ألوم نفسي عليه؟ ألم أجبرك في كثير من الأحيان على سقي حديقتي بدلاً من العمل؟ وعندما أردت أن أذهب لصيد سمك السلمون المرقط، ألم أكلف نفسي عناء إعطائك يوم عطلة؟

ثم أخذ السيد هامال يحدثنا عن اللغة الفرنسية من شيء إلى شيء آخر، قائلا إنها أجمل لغة في العالم وأوضحها وأمتنها: يجب أن نحفظها بيننا ولا ننساها أبدا، لأن الشّعب إذا وقع في العبوديّة ما دام متمسّكا بلغته فكأنما هو ممسك بمفتاح سجنه[12] ...ثم أخرج كتابا في النّحو وقرأ علينا درسنا.

[12] « S'il tient sa langue, – il tient la clé qui de ses chaînes le délivre. » F. Mistral.

اندهشت من مدى فهمي الجيّد. بدا لي كلّ ما قاله سهلاً وسهلاً جدّا. وأعتقد أيضًا أنني لم يسبق لي أن استمعتُ إليه بهذا القدر من الإصغاء، وأنّه لم يكن صبورًا في شرحه أيضًا مثل هذا اليوم. كان الأمر كما لو أن الرجل المسكين أراد، قبل أن يغادر، أن يعطينا كل ما لديه من معرفة، ليجعلها في رؤوسنا دفعة واحدة.

عندما انتهى الدرس، انتقلنا إلى الكتابة. وكان الأستاذ "هامال" قد أعدّ لنا في ذلك اليوم بعض الأمثلة الجديدة التي كتبها بنمط جميل :فرنسا، الألزاس، فرنسا، الألزاس. كان الأمر أشبه بأعلام صغيرة ترفرف في جميع أنحاء الفصل، تتدلى معلقة من مكاتبنا. كان عليك أن ترى كم كان الجميع يعمل بجد، ويا له من صمت! كل ما كنت تسمعه هو صرير الريشة على الورق. للحظة طار بعض الخنافس الصغيرة في الهواء محدثة بعض الضجيج، ولكن لم يعرهم أحد أي اهتمام، ولا حتى الصغار الذين كانوا مشغولين بتتبع حروفهم بقلب وضمير كما لو كانت لا تزال فرنسية... وعلى سطح المدرسة كان الحمام يهدل بهدوء، وقلت في نفسي وأنا أستمع إليه :

هل سيجبر على الهديل بالألمانية هو أيضاً؟

من وقت لآخر، عندما كنت أرفع نظري من صفحتي، كنت أرى السيد "هامال" بلا حراك في منبره، وهو يحدّق في الأشياء من حوله، وكأنّه يريد أن يأخذ مدرسته الصغيرة كلها معه إلى البيت... فكرت فقط! منذ أربعين عاماً وهو في نفس المكان، في نفس الموضع، وأمامه ملعبه وفصله الدراسي كما هو. فقط المقاعد والمكاتب قد صقلها الاستعمال وفركها الزمن، وأشجار الجوز في الفناء قد ازدادت طولاً، والنبتة المتسلقة التي زرعها بنفسه تزين النوافذ حتى السطح. ويا لها من حسرة على هذا الرجل المسكين أن يترك كل هذه الأشياء وراءه، وأن يسمع أخته وهي تغادر الغرفة في الأعلى وتذهب في الغرفة التي فوقه وهي تغلق صناديقها! لأنّه كان من المقرر أن يرحلا في اليوم التالي، وأن يغادرا البلاد إلى الأبد.

ومع ذلك، فقد كان لديه الشجاعة لتعليمنا طوال الحصّة .

بعد الكتابة، كان لدينا درس التاريخ؛ ثم غنى الأطفال جميعًا معًا. هناك، في الجزء الخلفي من القاعة، كان "هاوزر" العجوز قد ارتدى نظارته، وكان يمسك كتاب الأبجدية بكلتا يديه ويتهجّى الحروف بها. كان بإمكانك أن تلاحظ أنه كان يحاول أيضًا؛ فقد كان صوته يرتجف من شدة التأثر، وكان

سماعه مضحكًا جدًا، لدرجة أننا جميعًا أردنا أن نضحك ونبكي. لن أنسى تلك الحصّة الأخيرة...

وفجأة دقّت ساعة الكنيسة وقت الظهيرة، ثم دقّت ساعة صلاة التبشير الملائكي. وفي نفس اللحظة، دوت أبواق "البروسيين" العائدين من التمرين خارج نوافذنا... وقف السيد "هامال" شاحباً على منبره. لم يبدو بهذا الطول أبدا من قبل...

قال: "يا أصدقائي، يا أصدقائي، أنا... أنا..." ولكن شيئاً ما خنقه. لم يستطع إكمال جملته. لذا التفت إلى السبورة والتقط قطعة من الطباشير وضغط بكل قوته وكتب بأكبر قدر ممكن...

"تحيا فرنسا "

ثم وقف هناك، ورأسه مستند على الحائط، ودون أن يتكلم، لوّح بيده إلينا :

لقد انتهى الأمر... انصرفوا.

Guy de Maupassant

(1893-1850)

غي دي موباسان

جريمة الأب « بونيفاس»[13]

في هذا اليوم، عندما غادر « بونيفاس»[14] ساعي البريد مكتبه، رأى أن جولته ستستغرق وقتًا أقل من المعتاد، وكان مسرورًا لذلك. فقد كان مسؤولاً عن الريف المحيط بسوق مدينة « فيرفيل»، وعندما كان يعود في المساء، بخطواته الطويلة المتعبة المثقلة، كان قد قطع أحياناً أكثر من أربعين كيلومتراً على قدميه، وهكذا كان التوزيع يتم بسرعة، بل كان يستطيع أن يتنزه قليلاً في الطريق ويصل إلى بيته حوالي الساعة الثالثة. يا له من حظ! غادر القرية على طريق « سنمار»[15] وبدأ عمله. كان ذلك في شهر يونيو، الشهر الأخضر والمزهر، شهر السهول الحقيقي.

كان الرجل الذي يرتدي جلبابه الأزرق ويعتمر قبعة سوداء ذات ضفيرة حمراء يعبر حقول اللفت أو الشوفان أو القمح في ممرات ضيقة وهو غارق حتى كتفيه في المحاصيل؛ وكان يبدو رأسه وهو يمر فوق سنابل الذرة وكأنه يطفو على بحر أخضر هادئ يموج بلطف بنسيم خفيف. وكان يدخل المزرعة من

---

[13] www.bibebook.com/files/ebook/libre/V2/maupassant

[14] Boniface

[15] Sennemare

البوابة الخشبية المغروسة في السدود المظللة بصفين من أشجار الزان، ويحيي الفلاح باسمه: (صباح الخير يا سيد شيكو) ثم يناوله جريدته (لو بيتي نورماند)[16] فيمسح الفلاح يده على أسفل سرواله ويتلقى الورقة ويدسها في جيبه ليقرأها في وقت فراغه بعد تناول الطعام. في الظهيرة. وكان الكلب الذي استقر في برميل عند سفح شجرة تفاح مائلة ينبح بغضب وهو يشد سلسلته؛ وانطلق السائر دون أن يلتفت، ثم انطلق مرة أخرى بخطاه العسكرية وهو يمد رجليه الطويلتين وذراعه اليسرى على حقيبته واليمنى تتوكأ على عصاه التي كانت تمشي مثله في سرعة متواصلة.

وكان يوزع مطبوعاته ورسائله في قرية « سنمار»، ثم انطلق مرة أخرى عبر الحقول ليحمل بريد جابي الضرائب الذي كان يسكن في بيت صغير منعزل على بعد كيلومتر من القرية، وكان جابي الضرائب الجديد السيد "« تشاباتيس»" الذي وصل في الأسبوع السابق، تصله جريدة من باريس، وكان ساعي البريد «بونيفاس» أحياناً عندما يتاح له الوقت يطالع النسخة المطبوعة قبل أن يسلمها إلى المرسل إليه، ففتح حقيبته وأخذ الورقة وأخرجها من نطاقها ثم فتحها وبدأ يقرأ وهو يمشي. ولم تكن الصفحة الأولى

[16] Le Petit Normand

تثير اهتمامه كثيراً، فالسياسة لم تكن تهمه، فقد كان دائماً ما يتخطى كذلك الشؤون المالية، ولكن الأخبار كانت تستهويه وخاصة أحداث المجتمع. لقد كانوا يتناولون الفطور كالمعتاد في صباح ذلك اليوم. حتى أنه تأثر كثيراً بقصة الجريمة التي ارتكبت في منزل أحد حراس الصيد لدرجة أنه توقف في منتصف الطريق ليقرأها مرة أخرى ببطء. كانت التفاصيل مرعبة. فقد لاحظ أحد الحطابين أثناء مروره بمنزل الغابة في الصباح، وجود بعض الدماء على عتبته، كما لو أن أحدهم قد أصيب بنزيف في أنفه. ففكر قائلاً: "لا بد أن الحارس قد قتل أرنباً ما الليلة الماضية"، ولكنه عندما اقترب رأى أن الباب لا يزال مفتوحاً وأن القفل مكسور. ثم استولى عليه الخوف فأسرع إلى القرية ليخبر العمدة الذي اصطحب معه مأمور القرية والمعلم كتعزيز، وعاد الرجال الأربعة معاً. فوجدوا العمدة مذبوحاً أمام الموقد، وزوجته مخنوقة تحت السرير، وابنتهما الصغيرة ذات الست سنوات مخنوقة بين فراشين. وتأثر ساعي البريد « بونيفاس» تأثراً شديداً من فكرة هذه الجريمة التي تراءت له كل ملابساتها المروعة واحدة بعد الأخرى، حتى أنه شعر بضعف في ساقيه، وقال بصوت عال: "يا إلهي، إن بعض الناس أوغاد!" ثم سوّى الجريدة في حزامه الورقي وانطلق مرة أخرى، ورأسه مليء برؤى الجريمة. وسرعان ما

وصل إلى منزل السيد « تشاباتيس»[17]، وفتح البوابة المؤدية إلى الحديقة الصغيرة واقترب من المنزل. كان مبنى منخفضاً ذا طابق أرضي وسقف منحدر. كان على بعد خمسمائة متر على الأقل من أقرب منزل.

صعد ساعي البريد الدرجتين إلى عتبة الباب، ووضع يده على القفل، وحاول فتح الباب فوجده مقفلاً. ثم لاحظ أن المصراعين لم يفتحا، وأنه لم يخرج أحد في ذلك اليوم، فقلق لأن السيد « تشاباتيس» كان يستيقظ مبكراً جداً منذ وصوله. أخرج «بونيفاس» ساعته. وكانت الساعة لا تزال السابعة وعشر دقائق فقط من الصباح، أي أنه كان قد استيقظ مبكراً بساعة تقريباً، وعلى أية حال، كان من المفروض أن يكون رجل الضرائب قد استيقظ، فتجول بحذر حول المنزل وكأنه في خطر. ولم يلاحظ أي شيء مريب، مجرد خطوات رجل في فراش من نباتات الفراولة، ولكنه فجأة وقف بلا حراك، وقد اعتصره الألم، وهو يمر أمام نافذة. كان في المنزل أنين. اقترب من المكان، وتخطى حدود الزعتر، وضغط بأذنه على المظلة ليستمع عن كثب. كان بإمكانه سماع تنهدات طويلة مؤلمة، ونوع من الحشرجة، وصوت صراع. ثم أصبح الأنين أعلى، وتكرر أكثر فأكثر، ثم ارتفع صوته أكثر فأكثر، وتحول إلى صراخ... ولم

---

[17] M.. Chapatis

يعد « بونيفاس» يشك في أن جريمة كانت ترتكب في تلك اللحظة بالذات في بيت جابي الضرائب، فانطلق بأقصى سرعته، وعبر الحديقة الصغيرة مرة أخرى، واندفع عبر السهل، وعبر المحاصيل وهو يركض لاهثاً، ويهز حقيبته التي كانت تنبض على ظهره، ووصل منهكاً يلهث مضطرباً إلى باب الدرك. كان العميد « مالاوتور»[18] يصلح كرسيًا مكسورًا بمسامير ومطرقة. وكان الرقيب روتييه يمسك قطعة الأثاث المكسورة بين رجليه ويضع مسماراً على حافة الكسر؛ ثم كان العميد يمضغ شاربيه وعيناه مستديرتان مبللتان بالاهتمام ينقر أصابع مرؤوسه، وما أن رآهما ساعي البريد حتى صاح : - وتوقف الرجلان عن عملهما ورفعا رأسيهما وقد بدت على وجهيهما ملامح الدهشة والانزعاج، فكرر « بونيفاس» وقد رآهما مندهشين أكثر مما كانا في عجلة من أمرهما: - أسرع، أسرع! إن لصوصا في ذاك البيت، بيت جابي الضرائب، لقد سمعت الصرخات، لقد حان الوقت؛ وسأل الرقيب وهو يضع مطرقته على الأرض: - ما الذي جعلك على علم بذلك؟ وتابع ساعي البريد: - كنت ذاهباً لأحمل الجريدة مع رسالتين عندما لاحظت أن الباب مغلق وأن جابي المقابيض لم ينهض. فذهبت حول المنزل لأرى ماذا يجري، فسمعت

---

[18] Malautour

أنين بشر كأنما خنق أحدهم أو ذبح، فغادرت بأسرع ما يمكنني لأبحث عنك. لقد حان الوقت، فانتصب الرقيب وقال: - وأنت لم تنقذه بنفسك؟ فأجابه ساعي البريد الخائف: - لقد خشيت ألا يكون فيّ ما يكفيني، فأعلن الرّقيب وقد اقتنع: - فقط ارتد ملابسك وسألحق بك، ودخل الدرك، وتبعه الجندي الذي أعاد الكرسي. ثم عادا في الحال تقريباً وانطلق ثلاثتهم بخطى حثيثة إلى مسرح الجريمة، ولما اقتربوا من المنزل أبطأوا من سرعتهم احتياطاً، وسحب الرّقيب مسدسه، ثم دخلوا الحديقة ببطء واقتربوا من السّور. لم تكن هناك أي علامة على أن المجرمين قد غادروا. ظل الباب مغلقاً والنوافذ مغلقة.

- لقد أمسكنا بهم"، قال العميد متمتماً، فقاده الأب « بونيفاس» وهو يخفق من شدة التأثر إلى الجانب الآخر وقال مشيراً إلى مظلة: "إنها هناك." وذهب العميد بنفسه وضغط بأذنه على اللوح، فانتظر الآخران مستعدين لأي شيء وعيونهما مثبتة عليه. وبقي بلا حراك لفترة طويلة وهو يستمع. ماذا كان يسمع؟ لم يكشف وجهه المتجهم عن شيء، ولكن فجأة طوى شاربيه وانفرجت وجنتاه كما لو كان يضحك في صمت، ثم عاد إلى الرجلين اللذين كانا ينظران إليه في دهشة، ثم أشار إليهما أن يتبعاه وهو يمشي على رؤوس

أصابعه، وعاد إلى المدخل، وأمر « بونيفاس» أن يدس الجريدة والرسائل تحت الباب.

ففعل ساعي البريد مطيعاً، ولكنه كان صامتاً: (والآن، لننطلق) قال العميد، ولكن ما كاد يجتاز البوابة حتى التفت إلى الرجلين وهو يسخر، وشفتاه تتهكمان وعيناه مقلوبتان تلمعان انشراحا...

- فقال موزّع البريد العجوز: ماذا قد سمعت؟، أقسم أني سمعت !، ولكن الرّقيب لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فانفجر ضاحكاً. وكان يضحك كما يضحك المخنوق، واضعاً يديه الاثنتين على بطنه مطوياً على اثنتين، وعيناه مليئتان بالدموع، وقد أحاط بأنفه تجهّم رهيب. ونظر إليه الآخران مذعورين، ولكنه لم يستطع أن يتكلم، ولا أن يكفّ عن الضحك، ولا أن يجعلهما يفهمان ما يفعل، فأشار إليهما بإشارة هي إشارة شعبية مهذبة، ولمّا كانا لا يزالان مبهمان لا يفهمانه، فقد كررها عدة مرات متتالية مشيراً بإيماءة إلى البيت الذي لا يزال مغلقاً، وانفجر الرقيب الذي فهم فجأة، بدوره، في موجة من الضحك الهستيري.

وبقي الرجل العجوز غبيّاً تائها بين هذين الرجلين اللذين كانا يلتويان، وهدأ الرقيب أخيراً، ثم صرخ ضاحكاً في بطن الموزّع العجوز:

- آه أيها المهرج، أيها المهرج اللعين، سأحاسبك على الجريمة التي ارتكبها الأب « بونيفاس»! وفتح ساعي البريد عينيه على مصراعيها وكرر:

- أقسم أني سمعت ذلك. وعاد الرقيب إلى الضحك مرة أخرى. وكان العميد قد جلس على العشب في الخندق يتلوى على مهله.

- آه، لقد سمعت... وزوجتك، هكذا تقتلها، أليس كذلك أيها المهرج العجوز؟

- زوجتي؟ - ما دخل زوجتي؟ - وفكر طويلاً، ثم تابع:

- زوجتي... نعم، عندما اضربها... ولكن هذا صراخ... آه، إذن كان السيد «تشاباتيس» يضرب زوجته؟ ثم قام الرقيب، في هذيان من شدة الضحك، بتدويره كالدمية من كتفيه، وهمس في أذنه بشيء ترك الرجل مذهولاً من الدهشة ثم غمغم العجوز بحياء :

-لا... لا... لا شيء من هذا القبيل... وانطلق، مرتبكاً، مشوشاً، خجولاً، واختفى من حيث جاء عبر مسالك الحقول الملتوية، بينما كان الرقيب والعميد لا يزالان يضحكان ويصيحان عليه من بعيد بنكات مستوحيات من اللحظة وهما يراقبان قبعته السوداء وهي تنجرف بعيداً في بحر المحاصيل الهادئ.

تم بحمد الله.